الأدب العالمي للناشئين

رحلات الدكتور دوليتل

هيو لوفتينج

رحلات الدكتور دوليتل

تأليف

هيو لوفتينج

ترجمة

كوثر محمود محمد

هنـــداوي

رحلات الدكتور دوليتل

The Voyages of Doctor Dolittle

هيو لوفتينج

Hugh Lofting

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: حنان الكرارجي، تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي

الترقيم الدولي: ١ ٠٣٤٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- بودلبي ٧
٢- لغة الحيوانات ١١
٣- النجاح أخيرًا! ١٥
٤- المزيد من المشكلات المالية ١٩
٥- رسالة من أفريقيا ٢٣
٦- الرحلة الطويلة ٢٧
٧- جسر القرود ٣٥
٨- زعيم السباع ٣٩
٩- مجلس القردة ٤٣
١٠- الحيوان الأندر على الإطلاق ٤٥
١١- قصة الأمير ٤٩
١٢- الطب والسحر ٥٣
١٣- شرع حمراء وأجنحة زرقاء ٥٩
١٤- تحذير الفأر ٦٣
١٥- تنين الساحل البربري ٦٧
١٦- تو تو المستمعة ٧١
١٧- ثرثارو المحيط ٧٣
١٨- جيب المنقذ ٧٧
١٩- الوطن ٨١

الفصل الأول

بودلبي

قبل سنوات عديدة، عاش طبيب يدعى الدكتور دوليتل. كان هذا في زمن يسبق صبا أجدادك وجداتك بوقت طويل. اسم الطبيب الكامل هو د. جون دوليتل. وحرف الدال يدل على أنه طبيب مؤهل حاصل على شهادة في الطب. كان رجلًا شديد الذكاء ساعد الكثير من المرضى.

عاش الدكتور دوليتل في بلدة صغيرة تدعى بودلبي أون ذا مارش. جميع من بالبلدة عرفه، فقد كان تمييزه سهلًا؛ كان طويل القامة يرتدي على الدوام قبعة عالية — جعلته يبدو أطول قامة — ومعطفًا طويلًا أسود ذا جيوب عميقة احتفظ فيها بالكثير من الأشياء: منديل، ومذكرة، وتفاحة يدخرها فربما صادف حصانًا.

كان الناس يشيرون إليه كلما سار في شارع ماين ستريت ويقولون: «انظروا! ها هو الطبيب! كم هو بارع!» ويركض خلفه الأطفال، وهم يضحكون، ويسألونه الأسئلة، وكان يجيب عن أسئلتهم على الدوام ولم ير قط أن سؤالًا ما سخيف.

أما الكلاب فكانت تهز ذيولها وتتبعه في الشارع، وحتى الغربان التي تقطن برج الكنيسة كانت تطير فوقه وتنعب وتومئ له برأسها.

عاش الدكتور دوليتل في منزل صغير على أطراف البلدة، لكن حديقته كانت كبيرة، بها الكثير من الأعشاب والعديد من الأشجار، وطوق فناء المنزل حائط منخفض، وكانت به الكثير من الأماكن الظليلة للاسترخاء، وعاشت سارة أخت الطبيب معه، واعتنت بمنزله، فيما عني هو بالحديقة.

امتلك الدكتور دوليتل أيضًا الكثير من الحيوانات الأليفة؛ فقد كان مولعًا بالحيوانات. ففي البحيرة التي تقع في آخر حديقته كانت هناك أسماك ذهبية، وفي كوخ صغير مجاور

لمنزله أقامت الأرانب، وفي البيانو الذي امتلكه عاشت فئران بيضاء، وفي دولابه سنجاب، وفي قبوه قنفذ، بل كان يربي أيضًا بقرة بوصفها حيوانًا أليفًا.

تشاركت البقرة وصغيرها السكن في سقيفة أدوات المنزل مع حصان عجوز عاش مع الدكتور دوليتل لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، لذا فقد كانا صديقين مقربين. أيضًا عاش في الفناء نفسه بعض الدجاج، والحمام، وحملان، وعنز، والكثير من الحيوانات. الحيوانات المفضلة لدى الطبيب كانت البطة داب داب، والكلب جيب، والخنزير جاب جاب، والببغاء بولينيزيا، والبومة تو تو.

شكت شقيقته سارة كثيرًا من وجود هذه الحيوانات قائلة إن الحفاظ على المنزل مرتبًا صعب مع وجود كل هذه الحيوانات التي تركض في أرجائه على نحو يزعج المرضى عندما يأتون لموعدهم معه.

أتت عجوز يومًا ما لإجراء فحص طبي، وجلست على القنفذ الذي كان نائمًا نومًا عميقًا على الأريكة ولم يشعر بها وهي تدخل، ففزعت المرأة المسكينة بشدة حتى إنها صرخت وهرعت خارجة من الباب، وأقسمت ألا تزور الدكتور دوليتل ثانية، بل قادت سيارتها إلى بلدة تبعد عشرة أميال قاصدة طبيبًا آخر. وعندئذ قررت سارة دوليتل أن الوقت قد حان لتحدث أخيها بشأن حيواناته.

قالت سارة بحزم وهي تضع يدها على خصرها: «جون، كيف تتوقع أن يزورك مرضاك مع وجود كل هذه الحيوانات بالمنزل؟ هذا هو المريض الرابع الذي تصرفه الحيوانات. يقول السيد جينكينز إنه لن يأتي مجددًا، وحتى القس فاض به الكيل. لا يسعنا أن نخسر المزيد من الزبائن. إن أبقيت على هذا الوضع، فسنخسر أفضل زبائننا.» كانت سارة غاضبة حقًّا.

قال الطبيب: «لكنني أحب الحيوانات أكثر من أفضل زبائننا.»

فردت عليه سارة قائلة: «أنت سخيف.» ثم غادرت الغرفة.

ومع مضي الوقت، أتى الطبيب الطيب بالمزيد من الحيوانات، مما عنى أن مرضاه أخذ عددهم يتناقص، حتى لم يعد يأتيه إلا مريض واحد؛ هو الجزار.

لم يمانع الجزار من وجود كل تلك الحيوانات حوله، إلا أنه كان يمرض مرة واحدة في العام، وهذا لم يوفر للدكتور دوليتل وأخته ما يحتاجانه من المال لسداد كل فواتيرهما، علاوة على أنهما اضطرا إلى إطعام الكثير من الحيوانات.

كان الدكتور قد ادخر بعض المال الذي كان يمكن أن يكفيه سنوات، لكنه ظل يجلب المزيد من الحيوانات إلى المنزل، فنقل الفئران البيضاء إلى درج ثياب، وباع البيانو، ثم باع

حلته البنية، وعربة، وبعض الكتب، ومنضدة قديمة بالمطبخ. ومع ذلك، ظل المال شحيحًا والحيوانات كثيرة، واشتد فقر الدكتور دوليتل وأخته أكثر فأكثر.

فأصبح الكبار يشيرون إليه عندما يسير في الشارع مرتديًا قبعته العالية قائلين: «ها هو الدكتور دوليتل! كان الطبيب الأفضل في البلدة، لكنه الآن فقير إلى حد أنه لا يستطيع اقتناء حلة جيدة، وليس لديه أي نقود، وجواربه تملؤها الثقوب.»

إلا أن الدكتور دوليتل لم يكترث لذلك، فقد ظل رجلًا سعيدًا.

ظلت تركض في إثره الكلاب والقطط والأطفال. وظلت الكلاب تهز ذيولها سعادة برؤيته، والأطفال يسألونه الأسئلة، ومنحهم الطبيب الطيب جميعًا الوقت للحديث معه كعهده دائمًا.

الفصل الثاني

لغة الحيوانات

عرج الجزار ذات يوم على الدكتور دوليتل لزيارته، فلاحظ أن معطفه به الكثير من الرقع. كان الجزار يدرك أنه زبون الدكتور الوحيد، ويدرك أن الطبيب وأخته حتمًا يعانيان فقرًا شديدًا ولا يتحصلان إلا على دخل ضئيل للغاية. ولما تأمل المطبخ ولاحظ كل هذه الحيوانات التي بدت عليها السعادة والصحة الجيدة، واتته فكرة!

صاح: «لدي فكرة! لِم لا تتوقف عن علاج الناس وتصبح طبيبًا بيطريًّا؟»

كانت بولينيزيا الببغاء تجلس على عتبة النافذة وهي ما تزال تنشد أغنية لنفسها، فلما سمعت الجزار يقول هذا توقفت عن غنائها لتصغي إليه.

تابع الجزار كلامه قائلًا: «هذا منطقي تمامًا. أنت تعرف كل شيء عن الحيوانات، وأنا موقن من أن ما تعلمه عنها يفوق بكثير ما يعلمه أغلب الأطباء البيطريين. لقد لاحظت أنك تنسجم معها أكثر مما تنسجم مع البشر. لا أقصد بالطبع أنك لا تنسجم مع البشر؛ كل ما أعنيه هو أنك تبدو أكثر ارتياحًا مع الحيوانات، والحيوانات تبدو أكثر ارتياحًا معك. انظر إلى مطبخك! الحيوانات السعيدة تملؤه!»

كان هذا صحيحًا؛ فالكلب جيب، والخنزير جاب جاب طويا جسديهما وهما يجلسان معًا في ركن، وجلست داب داب البطة على المنضدة تنظف ريشها، أما القنفذ فكان يغفو تحت المنضدة، فيما تلعب الفئران في صندوق بجانب الباب، أما الببغاء بولينيزيا فكما تعرفون جلست على عتبة النافذة تنصت لكل كلمة.

قال الدكتور دوليتل: «لا أدري، لم أفكر في هذا من قبل. تبدو هذه الفكرة شديدة الغرابة.»

فصاح الجزار: «غريبة؟ لكنها منطقية تمامًا. ثمة الكثير من المزارعين المجاورين يملكون أبقارًا وأغنامًا قد تنتفع من مساعدتك، علاوة على كل قطط وكلاب البلدة. والحيوانات تمرض كثيرًا شأنها شأن البشر. ثق بكلامي. عليك أن تصبح طبيبًا بيطريًّا!»

بعد أن غادر الجزار طارت بولينيزيا من النقطة التي جلست عندها وجلست إلى جانب الدكتور دوليتل وقالت: «كلام هذا الرجل منطقي إلى حد بعيد. عليك أن تصبح طبيبًا بيطريًّا. هؤلاء القوم كانوا حمقى لأنهم كفوا عن القدوم إلى هنا. أنت أفضل طبيب بالعالم، والحيوانات بحاجة إليك.»

قال الدكتور دوليتل: «ثمة الكثير من الأطباء البيطريين في الجوار.» ثم هز رأسه نفيًا، وضحك ضحكة خافتة قصيرة ثم نهض من على المائدة وأخذ يزيل أطباق الطعام من عليها.

قالت بولينيزيا: «نعم، ثمة الكثير من الأطباء البيطريين في الجوار، لكنك ستكون الأفضل. أنا واثقة من هذا. لن يستطيع أي طبيب بيطري آخر أن يباريك.»

ثم طارت إلى عتبة النافذة حيث أخذ الدكتور دوليتل يصلح بعض آنية الزهور، وقالت له: «سأخبرك بأمر شديد الأهمية، لذا أود أن تصغي إلي بعناية.»

ترك الدكتور دوليتل أصيص الزهر والتفت ينظر إلى بولينيزيا.

فسألته: «هل تعلم أن الحيوانات تستطيع أن تتكلم؟»

فأجاب مبتسمًا: «أعلم أن الببغاوات تتكلم بالطبع.»

فقالت بولينيزيا في زهو: «أجل، نحن الببغاوات نتحدث لغتين؛ لغة البشر ولغة الطيور. على سبيل المثال، إن قلت: «بولي تريد رقاقة بسكويت»، فستفهمني. الآن أصغ إلى هذا: كا-كا أو-إي إي في-في.»

فصاح الطبيب: «عجبًا! ما الذي يعنيه هذا بحق السماء؟»

فقالت بولينيزيا: «يعني هذا في لغة الطيور: هل الشاي جاهز؟» وأومأت برأسها عدة مرات وقفزت على عتبة النافذة. كان إطلاع الدكتور دوليتل على هذه المعلومة شيقًا، حتى إنها تساءلت لِم لَم تفكر في هذا من قبل.

فقال الطبيب متعجبًا: «حقًّا؟! هذا شيق! لم أسمعك من قبل تتحدثين بهذه اللغة.»

فسألته: «ولِم أتحدث هكذا؟ لم تكن لتفهمني. حقيقة ليس هناك جدوى من الحديث هكذا أمام البشر، لهذا لا نفصح عادة عن ذلك.»

فقال الطبيب وقد تحمس للأمر: «حدثيني أكثر عن هذا. لا، مهلًا!» وأخرج مفكرته وقلمه الرصاص من جيبه وقال: «لا تسرعي الآن. سأكتب كل شيء.»

وجلس على المنضدة، وقال: «لنبدأ من البداية. أطلعيني على أبجدية الطيور.» ومن هنا بدأ الدرس.

من هنا تعلم الدكتور دوليتل أن للحيوانات لغتها الخاصة وأنها تستطيع أن تتحدث فيما بينها، فجلس طوال عصر هذا اليوم في المطبخ مع بولينيزيا يتعلم كلمات لغة الطير، وكتب كل كلمة بعناية في مفكرته وتهجاها كما بدت له ليتذكرها فيما بعد.

وبعد بضع ساعات استيقظ الكلب جيب، وسار إلى بولينيزيا والطبيب، فقالت بولينيزيا: «أرأيت؟ إنه يحدثك.»

فقال الدكتور دوليتل: «لم أسمع شيئًا. لاحظت فقط أنه يحك أذنه.»

فقالت بولينيزيا: «الحيوانات لا تتحدث على الدوام بالأصوات. نحن نتحدث بآذاننا، وأقدامنا، وذيولنا، ونستخدم كل جزء من أجسامنا للتحدث؛ إذ لا نحب أحيانًا أن نحدث ضجيجًا. أترى كيف يجعل أحد جانبي منخاره يرتجف؟»

فقال الدكتور دوليتل: «أجل، أجل. أرى هذا. ما الذي يعنيه ذلك؟»

فأجابت بولينيزيا: «إنه يسألك إن كنت قد لاحظت أن المطر توقف، فالكلاب تستخدم أنفها على الدوام تقريبًا في سؤال الأسئلة.» فدون الدكتور دوليتل بسرعة هذه المعلومة أيضًا في مفكرته.

لم يمض وقت طويل إلا واستطاع الدكتور دوليتل فهم لغة الحيوانات ومخاطبتها بنفسه، لكنه ظل أحيانًا بحاجة إلى مساعدة بولينيزيا، لكن مع ثقته من أنه سيصبح عما قريب قادرًا على مخاطبتها بنفسه. ومن هنا قرر آخر الأمر أن يعمل بنصيحة الجزار، وتوقف عن العمل طبيبًا بشريًّا وبدأ في معالجة الحيوانات بدلًا.

الفصل الثالث

النجاح أخيرًا!

ساعد الجزار في نشر الخبر، ولم يمض وقت طويل إلا وعلم الجميع أن الدكتور دوليتل أصبح الآن يعالج الحيوانات، فجلبت السيدات المسنات كلاب البودل الخاصة بها التي أكلت الكثير من الكعك، وسافر المزارعون أميالًا عديدة ليجلبوا له أبقارهم وأغنامهم المريضة، وجلب الأطفال قططهم التي تعاني من الزكام. وصار لدى الدكتور دوليتل الكثير من الزبائن وأصبح شديد السعادة.

ذات يوم أُتي بحصان حرث إلى الطبيب. كان الحصان المسكين سعيدًا بالعثور على رجل يستطيع الحديث إليه، فقد عانى عناء شديدًا لأنه لا يُفهم.

قال الحصان: «أتعلم أيها الطبيب، الطبيب البيطري الذي أُخذت إليه أولًا كان جاهلًا إلى أقصى حد. ظل طوال الأسابيع الستة الماضية يعطيني دواءً للصداع، لكن ما أحتاج إليه حقيقة هو نظارة! فإحدى عيني تفقد البصر.»

نظر الطبيب بإمعان في عين الحصان اليسرى، فوجدها غائمة بالفعل، فقال للحصان: «أستطيع أن أصنع لك نظارة في الحال.»

فقال الحصان: «أريد نظارة كنظارتك، إلا أنني أريد أن يكون زجاج نظارتي أخضر اللون، فهذا سيساعد على حجب ضوء الشمس عني وأنا أعمل في الحقل.»

فرد عليه الدكتور دوليتل قائلًا: «بالطبع! سيكون لك هذا!»

وقاد حصان الحرث إلى باب مكتبه، وقال: «سأكون قد فرغت من تجهيزها لك الأسبوع القادم.»

فقال الحصان وهو يسير خارجًا من باب مكتب الطبيب: «مشكلة أغلب الأطباء البيطريين هي أنهم يحسبون أن كل ما يفعلونه صائب لأن الحيوانات لا تشكو.»

ثم تابع كلامه قائلًا: «أنا بصورة عامة مخلوق هادئ جدًّا، وأتحلى بالصبر مع البشر عادة. كل ما في الأمر هو أنني أعاني عناءً شديدًا عندما لا يكترثون بي إلى حد واضح. أخشى أنني في بعض الأحيان أفقد السيطرة على أعصابي.»

فقال له الطبيب الطيب دوليتل: «علينا جميعًا أن نحاول التحلي بالصبر، وعليك أن تحاول أن تتذكر أن أغلب البشر لا يقصدون أذى.»

بعدئذ ربت على ظهر الحصان، وتركه يمضي إلى حال سبيله. ولما عاد الحصان بعد أسبوع أعطاه الطبيب نظارة خضراء كبيرة.

وكما هو متوقع، دهش الناس من رؤية حصان يرتدي نظارة؛ فكانوا يتوقفون ويحدقون به كلما عمل بالحقل، إلا أنهم لم يندهشوا عندما علموا أن النظارة أتت من الدكتور دوليتل، فقد صاروا يتوقعون منه أمورًا من هذا القبيل. ولم يمض وقت طويل قبل أن يصبح ارتداء الأحصنة للنظارات مشهدًا معتادًا، بعدئذ ظهرت كلاب تضع جبائر للعظام، وقطة تسير متكئة على عكاز، وبقرة ترتدي دعامة عنق، وماعز ترتدي عدسة واحدة.

شعرت كل هذه الحيوانات بالرضا الشديد عن عمل الدكتور دوليتل حتى إنها حدثت عنه حيوانات أخرى، وسرى حديثها عنه من بلدة إلى أخرى، وتحمست الحيوانات في كل مكان لوجود طبيب بيطري يستطيع أن يفهم لغتها؛ يصغي إليها ويساعدها في أي مشكلة تواجهها.

سمعت الحيوانات البرية أيضًا عن الدكتور دوليتل، فأتى الكثير منها من الغابات لرؤيته؛ احتشدت في فناء منزله الغرار والخفافيش والسناجب والذئاب والبوم والثعالب، وفي نهاية الأمر أصبح عدد الحيوانات كبيرًا جدًّا حتى إن الدكتور دوليتل اضطر إلى تنظيم صفوفها.

صنع لافتات ليعلقها على أبواب منزله مخصصة لأنواع الحيوانات المختلفة، فكتب على لافتة الباب الأمامي: «الجياد»، وعلى لافتة الباب الجانبي: «الأبقار»، وعلى لافتة باب المطبخ: «الأغنام»، وحتى الفئران كان لها مدخل صغير خاص بها بجانب قبو المنزل، مما سهل الأمور على الطبيب. حينها سنح له فحص الحيوانات وهي تصطف بصبر عند الباب المخصص لها.

سارت حياة الدكتور دوليتل على هذا المنوال عدة سنوات؛ أتت الحيوانات من المناطق المجاورة من على بعد أميال إلى بلدة بودلبي أون ذا مارش للقائه، وبذا أصبح شهيرًا بين حيوانات العالم أجمع، وعاش سعيدًا، وأحب حياته كثيرًا.

جلست بولينيزيا يومًا كعادتها على عتبة النافذة، تتطلع إلى الخارج، وفجأة أخذت تضحك.

فسأل الدكتور دوليتل الذي كان يقرأ جريدة الصباح وأدهشه ضحكها: «ما المضحك إلى هذا الحد؟»

فأجابته: «خطر لي توًّا أن البشر مضحكون جدًّا؛ إنهم يمضون وقتًا طويلًا للغاية مع الحيوانات، لكن كل ما تعلموه هو أن هز الكلب لذيله يعني أنه سعيد.»

فسألها الطبيب: «وهذا أضحكك؟»

فأجابته: «أعتقد أنه من المضحك أنك أول من حاول فهمنا. أخيرًا بعد كل هذه السنوات حاول أحد الأشخاص فهمنا.» وهزت رأسها ضاحكة.

فقال الدكتور دوليتل: «حسنًا. أظن أن هذا غريب.»

استطردت بولينيزيا قائلة: «جمعتني فيما مضى معرفة ببغاء من نوع مكاو يمكنها أن تقول «صباح الخير» بسبع لغات بشرية مختلفة. علمها أستاذ مسن هذا، لكن صديقتي شعرت بالإحباط، فقد أخبرتني أن الأستاذ المسن لم يستطع تحدث اللغة اليونانية جيدًا، وقد أرادت أن تصوب له أخطاءه لكنها خشيت أن يعد هذا تصرفًا فجًّا.»

ثم بدا على بولينيزيا فجأة الجدية، والتفتت إلى الدكتور دوليتل وقالت: «ثمة الكثير من الأشياء التي لا يستطيع البشر القيام بها؛ فهم لا يستطيعون الطيران أو البقاء تحت الماء وقتًا طويلًا، أو الركض بسرعة عربة أو قطار، لكنهم مع ذلك لا يزالون يحسبون أنهم أفضل من كل ما حولهم. لماذا؟»

فقال الطبيب بحزن: «آسف. لا أعرف الجواب لهذا. لقد تساءلت كثيرًا عن هذا الأمر نفسه.»

الفصل الرابع

المزيد من المشكلات المالية

لم تقتصر الفرحة بعمل الدكتور دوليتل الجديد عليه وعلى الحيوانات؛ فقد سعدت سارة أيضًا به، إذ أتاها هي والدكتور دوليتل دخلًا أخيرًا، حتى إنها اشترت فستانًا جديدًا لارتدائه يوم الأحد، لكن الحيوانات ظلت تزعجها، فقد كان من المستحيل الإبقاء على المنزل نظيفًا.

بعض الحيوانات المريضة كان المرض قد اشتد عليها حتى إنها اضطرت إلى المكوث في المنزل أسبوعًا؛ كانت تجلس على الكراسي الموجودة بالمرج أو تسترخي في الحديقة، وأحيانًا عندما تشعر بأنها صارت أفضل حالًا، ترفض المغادرة؛ إذ أحبت المكوث لدى الدكتور دوليتل كثيرًا. ولم يسع الطبيب قط أن يرفض بقاءها، من ثم تزايد عدد الحيوانات الأليفة في منزله أكثر فأكثر.

رأى الطبيب يومًا أثناء سيره في البلدة عازفًا متجولًا لأرغن صغير يصطحب قردًا مقيدًا بحبل، فلاحظ على الفور أن الطوق الذي يقيد القرد شديد الإحكام، وانتبه إلى أن القرد الصغير كان تعيسًا، فأعطى العازف دولارًا وأخذ منه القرد. غضب العازف في البداية، إذ لم يرد أن يتخلى عن القرد، لكن عندما قال الدكتور دوليتل إنه سيتصل بالشرطة ويبلغها بقسوته، أدرك الرجل أنه خسر النقاش وأخذ الدولار ورحل.

انتقل القرد للعيش مع الدكتور دوليتل وجميع حيواناته الأليفة، وأسمته الحيوانات الأخرى «تشي تشي» وهو اسم يعني في لغة القرود «زنجبيل».

وفي يوم آخر زار طاقم سيرك البلدة. عانى تمساح يسافر مع الطاقم من ألم في أسنانه، ففر في منتصف الليل وأتى الدكتور دوليتل. استطاع الطبيب بالطبع أن يحدثه بلغة التماسيح، وصحبه إلى بيته، وعالج السن التي تؤلمه، وكما هو متوقع، لم يرد التمساح أن يغادر، وطلب من الطبيب أن يسمح له بالعيش في البحيرة الصغيرة التي

تقع في آخر حديقته، ووعد بألا يلتهم الأسماك التي تعيش فيها. وبالطبع لم يستطع الطبيب الرفض. وأوفى التمساح بعهده ولزم الهدوء دائمًا وعامل كل من بالمنزل بلطف. ولما أتى رجال طاقم السيرك لاستعادته، وجدوه سعيدًا وهادئًا حتى إنهم اتفقوا في الرأي مع الدكتور دوليتل أنه سيكون أكثر سعادة بكثير إن أقام هناك، فتركوه معه.

لكن سارة أخت الطبيب لم تسعد بهذا. أخافها التمساح خوفًا شديدًا، وخشيت أن يبث الخوف في نفوس الآخرين أيضًا. وقد كانت مع الأسف محقة؛ إذ توقفت السيدات المسنات عن جلب كلاب البودل اللائي يعشقنها خشية أن يلتهمها التمساح، وتوقف المزارعون عن جلب أغنامهم للسبب نفسه.

حاول الدكتور دوليتل أن يحدث التمساح عن الأمر، وأوضح له أنه يخسر زبائنه لخوفهم منه، ثم أضاف إنه سيضطر إلى العودة إلى السيرك، فبكى التمساح بشدة وتوسل إلى الطبيب أن يسمح له بالبقاء معه، ووافق الطبيب بالطبع، إذ لم يحتمل رؤية حيوان يشعر بالتعاسة.

هنا قالت أخته سارة: «فاض بي الكيل. كادت أحوالنا تتحسن من جديد! لن يمضي وقت طويل قبل أن نعود إلى حياة الضنك من جديد. يجب أن يرحل هذا القاطور.»

فرد عليها الدكتور دوليتل بهدوء قائلًا: «إنه ليس قاطورًا، بل تمساح.»

– «لا آبه ما هو. العثور على شيء كهذا تحت الفراش مريع.»

– «لقد وعد بألا يؤذي أي حيوان، وأنا أثق به تمامًا.»

صاحت سارة قائلة: «تثق به؟! هل جننت؟ لقد توقف الزبائن عن المجيء بسبب هذا المخلوق. لقد نلت كفايتي. إما أن يرحل أو أنا أرحل.»

وكان ما كان؛ حزمت سارة أخت الدكتور دوليتل متاعها ورحلت عن المنزل وانتقلت إلى الشارع المجاور حيث عملت مدبرة منزل، وفي نهاية الأمر تزوجت من رجل جم اللطف وعاشا معًا حياة سعيدة هادئة. وكما لك أن تتوقع، كان منزلها على الدوام نظيفًا ومرتبًا.

كان الدكتور دوليتل يشعر بسعادة بالغة مع حيواناته، لكنه مع ذلك واجه وقتًا عصيبًا؛ فأخته كانت محقة؛ تخوف الناس من التمساح، ومن هنا خسر هو أكثر زبائنه، ومن جديد، لم يعد معه إلا القليل من المال، ولما لم تعد أخته معه، لم يجد شخصًا آخر يساعده في شئون المنزل. ولم يكن قادرًا على توظيف من يساعده، لذا بذلت الحيوانات كل ما بوسعها لمساعدته.

تولى القرد تشي تشي كل أمور الطهي والحياكة، وساعدت البومة تو تو في تولي شئون المنزل المالية؛ إذ أجادت الحساب، أما البطة داب داب فأزالت الغبار عن الأسِرة ورتبتها، فيما ساعد الخنزير جاب جاب في البستنة، أما بولينيزيا فكانت مدبرة المنزل، مما عنى أنها كانت المسئولة عن كل شيء، وقد حرصت على أداء كل المهام المنزلية على الوجه الصحيح.

احتاجت الحيوانات إلى بعض الوقت لتتعلم تأدية مهامها. على سبيل المثال: كانت مشاهدة جيب الكلب وهو يكنس الأرض بذيله ممتعة جدًّا! إلا أن الحيوانات كافة كانت عازمة على العمل، فحاولت وحاولت إلى أن استطاعت إتقان مهامها. كان هذا أقل ما يمكن القيام به من أجل الطبيب الذي منحها الكثير.

غير أن المشاكل المالية ظلت قائمة. احتاج الطبيب إلى إطعام الكثير من الحيوانات، ولم يرد إليه المال إلا من القليل من الزبائن، لذا أنشأت الحيوانات كشكًا صغيرًا على جانب الطريق وباعت خضروات الحديقة. كان الدكتور دوليتل يهز كتفيه بلا مبالاة عندما تتخوف بولينيزيا من عدم كفاية المال لشراء الأسماك للعشاء.

كان يقول لها: «لا تقلقي كل هذا القلق. إنك تبدين كأختي. ما دام الدجاج يضع البيض، والأبقار تدر اللبن فسنكون على ما يرام. بإمكاننا دومًا أن نطهو بيض الدجاج على العشاء، كما أن الشتاء لا يزال بعيدًا. سيتاح لنا وقت لجني المزيد من المال.»

لكن الشتاء جاء قبل أوانه بكثير هذا العام، ولم تعد هناك خضروات بالحديقة. كانت لديهم مدفأة كبيرة لطيفة يجلسون حولها، لكن الحيوانات كانت جائعة، وتخوفت من أن يكون الشتاء طويلًا وباردًا.

الفصل الخامس

رسالة من أفريقيا

كان ذاك الشتاء باردًا بالفعل. اجتمعت الحيوانات في إحدى ليالي ديسمبر/كانون الأول حول نار المدفأة، وقرأ لها الدكتور دوليتل قصصًا ترجمها إلى لغة الحيوانات لتستمتع هي أيضًا بها، لكن فجأة طارت البومة تو تو هابطة من عوارض سقف المنزل الخشبية.

قالت: «صه! ما هذا الضجيج بالخارج؟»

فأنصت الجميع. كانت تو تو محقة: فقد تنامى صوت ضوضاء غريبة من خارج المنزل. كان هذا صوت شيء يركض، ثم انفتح باب المنزل فجأة ودخل تشي تشي راكضًا وهو يلهث.

صاح قائلًا: «حضرة الطبيب. بلغتني للتو رسالة من ابن عمي في أفريقيا. لقد أصاب القرود هناك مرض مريع. جميعهم سمعوا بك، وهم يتوسلون إليك أن تأتي لمساعدتهم.»

فسأل الطبيب: «من جاء بهذا الخبر؟» إذ دهش من وصول رسالة من مكان بعيد جدًّا كهذا.

فأجابه تشي تشي: «أتت به عصفورة من عصافير الجنة. إنها ما تزال بالخارج بالقرب من سور الحديقة.»

فصاح الدكتور دوليتل: «أدخلها. الجو بالخارج شديد البرودة على عصفورة صغيرة، لا سيمًا أنها من أفريقيا، بإمكانها أن تتدفأ بالقرب من المدفأة.»

دخلت عصفورة الجنة. كانت تشعر بالبرد والتوتر في البداية، لكن لم يمض وقت طويل قبل أن تشعر بالدفء بالقرب من المدفأة، وأخبرت الجميع بشأن المرض الذي أصاب القردة في أفريقيا. كان مرضًا خطيرًا، لذا احتاجت القردة إلى الدكتور دوليتل على الفور.

من ثم قال الدكتور دوليتل: «بالطبع، بالطبع. سأغادر في أقرب وقت ممكن، غير أنني أخشى أننا لا نملك مالًا كافيًا لشراء تذاكر السفر. تشي تشي! هلا أعطيتني الحصالة؟»

تسلق القرد تشي تشي أرفف المكتبة وأخذ الحصالة من الرف العلوي لها، لكنها لم تحو أي مال؛ لم تحو بنسًا واحدًا!

فصاح الطبيب: «ليس بها أي مال! أنا متأكد من أنه تبقى لدينا على الأقل القليل منه.»

فسألت تو تو: «ألا تذكر أننا اضطررنا إلى شراء طوق جديد لجيب؟»

فأجاب الدكتور دوليتل: «آه، نسيت هذا. أعتقد أنني سأضطر إلى الذهاب إلى الشاطئ لأستعير قاربًا. آمل أن أجد صيادًا باللطف الكافي لإعارتي واحدًا.»

من ثم اتجه الدكتور دوليتل صباح اليوم التالي إلى الشاطئ وعثر على صياد اتفق معه على إعارته قاربًا ليقله إلى أفريقيا. كان الصياد يعلم أن الدكتور دوليتل لن يستطيع دفع المال له.

قال له: «لا بأس أيها الطبيب. لقد ساعدت ابني قبل وقت طويل، وأعلم أنك تعنى بكل هذه الحيوانات، ويسرني أن تتاح لي أخيرًا فرصة لمساعدتك.»

وعد الدكتور دوليتل بأن يعيد القارب في أقرب وقت ممكن، ثم عاد مسرعًا إلى منزله ليطلع الحيوانات على هذا النبأ السار.

فرحت الحيوانات فرحًا شديدًا، وتحمس التمساح، وتشي تشي، وبولينيزيا للعودة إلى أفريقيا؛ فهم في المقام الأول قد ولدوا فيها، ولم يعودوا إليها منذ سنوات عديدة.

قال الدكتور دوليتل مخاطبًا التمساح وتشي تشي وبولينيزيا: «لن أستطيع أن أصطحب معي إلا ثلاثتكم، وجيب، وداب داب، وجاب جاب بالطبع. سيضطر الآخرون إلى البقاء هنا. أفريقيا لن تكون مكانًا جيدًا للكثير منهم.»

ومن حسن الحظ أن بولينيزيا سافرت في الكثير من الرحلات البحرية، وأخبرت الطبيب بكل ما سيحتاجه في الرحلة.

قالت بولينيزيا: «سيتعين علينا أن نجلب معنا أنواعًا خاصة من الطعام. ثمة خبز يدعى بسكويت البحر، يدوم وقتًا طويلًا. وسنحتاج أيضًا إلى إحضار علب فول وخضروات محفوظة، ففي الرحلات الطويلة ثمة احتمال دائمًا لأن يفسد الطعام.»

قال الطبيب: «أجل، أجل، بالطبع.» ودون كل ما أخبرته به بولينيزيا في مفكرته الصغيرة، ثم أردف قائلًا: «أظن أن القارب ستكون معه مرساته الخاصة.»

فقالت بولينيزيا: «أجل. ستكون معه مرساة خاصة به، لكن علينا أن نحرص على أن يكون معنا الكثير من الحبال، فهي مفيدة جدًّا في الرحلات البحرية الطويلة.»

لكن ظلت مشكلة المال قائمة. كيف سيشترون كل ما سيحتاجون إليه في رحلتهم إن كانت حصالة النقود خاوية؟

لك أن تتخيل دهشة الدكتور دوليتل عندما جاء الجزار إلى منزله بكل المؤن التي يحتاجها!

قال الجزار: «كنت أعلم أنك ستحتاج إلى تلك الأغراض من أجل رحلتك. أرجوك لا تشغل بالك بشأن سداد ثمن هذه الأشياء الآن. تحادثنا أنا والبقال في الأمر. أنت تؤدي عملًا مهمًّا. سنتناول أمر النقود عندما تعود من أفريقيا.»

صافح الدكتور دوليتل يد صديقه الجزار قائلًا: «عجبًا. أنت شديد الإحسان إلينا. كيف يسعني شكرك؟»

فقال الجزار: «لا داعي لهذا. تسرني مساعدتك.»

سارع الطبيب والحيوانات بحزم جميع أغراضهم، وأغلقوا مصدر المياه حتى لا تتجمد في الأنابيب أثناء غيابهم، ووضعوا مصاريع على النوافذ وأعطوا مفتاح الإسطبل للحصان. وما إن تيقنوا من أن هناك ما يكفي من الطعام والتبن لجميع الحيوانات التي ظلت في المنزل حتى اتجهوا إلى الشاطئ.

كان الجزار والصياد والبقال هناك لوداعهم وساعدوا الدكتور دوليتل والحيوانات في حمل مؤنهم إلى القارب.

لكن قبل أن يبحروا انتبه الدكتور دوليتل إلى أنه لا يعرف الطريق إلى أفريقيا، فطلب من الصياد أن يرسم له خريطة.

قالت عصفورة الجنة: «لا تقلق أيها الطبيب. أنا أعرف الطريق! بإمكانك أن تتبعني طوال الطريق إلى أفريقيا.»

ودع الدكتور دوليتل أصدقاءه اللطفاء ورفعوا مرساة القارب ونشروا الشراع وبدأت رحلتهم!

الفصل السادس

الرحلة الطويلة

أبحر الطبيب والحيوانات ستة أسابيع، ومع أن تلك الفترة قد تبدو طويلة، إلا أن الرحلة حقيقة كانت قصيرة؛ إذ لم يهدر الطبيب والحيوانات وقتًا؛ فتبعوا عصفورة الجنة طوال النهار وهي تطير أمام القارب، وحملت العصفورة ليلًا مصباحًا صغيرًا لئلا يضلوا الطريق.

أصبح الجو أكثر دفئًا مع إبحارهم جنوبًا. كانت بولينيزيا، وتشي تشي، والتمساح في غاية السعادة؛ فركضوا في أرجاء القارب يضحكون، وأطلوا من جانبه آملين أن يكونوا أول من يبصر أفريقيا؛ كانوا سيبلغون موطنهم الأصلي في وقت قصير!

أما الخنزير والكلب والبومة، فلم يشعروا بالسعادة نفسها تجاه الطقس. كان احتمال الحرارة لديهم أشق كثيرًا، فلم يسعهم إلا الجلوس في الظل وألسنتهم تتدلى من أفواههم ورشف الليمونادة.

حافظت البطة داب داب على برودة جسدها بالسباحة في المحيط خلف القارب، وغاصت أحيانًا تحت الماء، وسبحت تحت القارب، وأمسكت بالكثير من الأسماك، وفرح الجميع بتناول السمك على العشاء. كان هذا بمثابة تغيير لطيف لعلب الفول والخضراوات المحفوظة.

سبحت مجموعة من الدلافين في أحد الأيام بجانب القارب، فجلست بولينيزيا على حافته لتحدثهم. سألت الدلافين إن كان هذا هو قارب الدكتور دوليتل، فأجابت بولينيزيا بنعم.

قالت الدلافين: «نحن سعداء جدًّا بسماع هذا. ستُسر القردة بذلك، فقد كانوا يشعرون بالقلق.»

قالت بولينيزيا: «سنبلغهم في وقت قصير. تقول عصفورة الجنة إننا سنصل في غضون أيام قليلة.»

سألت الدلافين: «هل تمانعون أن نسبح بجواركم بعض الوقت. سيشرفنا السفر مع الدكتور دوليتل.»

فقالت بولينيزيا: «يمكنكم هذا بالطبع.» وشعرت بالفخر فهي في المقام الأول من علم الدكتور دوليتل أن يتحدث لغة الحيوانات، وها قد سمعت جميع الحيوانات به.

بعد يومين، مع مغرب الشمس، أمسك الدكتور دوليتل منظاره ثم صاح: «تعالوا جميعًا وانظروا! أوشكت رحلتنا على الانتهاء؛ بإمكاني أن أرى سواحل أفريقيا!»

هرعت جميع الحيوانات إلى جانبه، وتناوبوا النظر عبر المنظار، وهللوا فرحًا باقترابهم من غايتهم.

سأل الكلب جيب: «كم تبقى من الوقت لنبلغ الشاطئ؟»

فقال الدكتور دوليتل: «أتوقع أن نصل إلى هناك بحلول الصباح، أظن هذا.»

لكن في اللحظة نفسها أظلمت السماء واشتدت الريح، فهرع الجميع إلى كابينة القارب لئلا يبتلوا خلال العاصفة. دوى الرعد وسطع البرق، وأخذ المطر يهطل وارتفعت الأمواج حتى إن المياه تدفقت على سطح القارب.

خلد الجميع إلى النوم آملين أن تنتهي العاصفة قبل حلول الصباح، لكن في منتصف الليل دوى صوت ارتطام وتوقف القارب وبدأ ينقلب على جانبه.

صاح الطبيب: «ماذا حدث بحق السماء؟» وفتح باب الكابينة وتسلق صاعدًا سطح القارب، وتعذر عليه السير وسط الرياح والمطر.

قالت بولينيزيا: «أعتقد أن قاربنا تحطم.»

قال الطبيب: «لا بد أننا اصطدمنا بصخور أفريقيا. يا إلهي! آمل ألا نكون قد حطمنا القارب.»

قالت البطة داب داب: «سأفحصه.» وغاصت بجانب القارب وسبحت تحت الماء لفحص قاعه. كان هناك خرق كبير به من أثر الاصطدام بالصخور، وقد تدفق الماء إلى داخله وأخذ يغوص بهم بسرعة، فأسرعت داب داب عائدة إلى سطح القارب وأبلغتهم بذلك.

بدأت بعض الحيوانات تفزع. لم يُخف الأمر التمساح وجيب، إذ يستطيعا السباحة، وتستطيع بولينيزيا وعصفورة الجنة والبطة داب داب والبومة تو تو الطيران، أما القرد تشي تشي والخنزير جاب جاب فلا يستطيعان السباحة أو الطيران.

من ثم صاحت بولينيزيا: «ائتوا بالحبل. قلت لكم إنه سينفعنا. نحتاج إلى مساعدتك من جديد يا داب داب. خذي طرف هذا الحبل وطيري إلى اليابسة واربطيه حول شجرة.»

فعلت داب داب ما طلب منها. كانت الرياح عاتية، لكنها لم تضل طريقها، وعقدت الحبل بإحكام حول شجرة وعقد الدكتور دوليتل الطرف الآخر منه حول حافة القارب.

ثم قالت بولينيزيا: «ليتسلق الحبل الآن كل من لا يستطيع السباحة أو الطيران، بذا سنصل إلى الشاطئ.» وبهذه الكيفية بالضبط بلغت جميع الحيوانات الشاطئ بأمان.

وضع الطبيب صندوق أغراضه وبعض المعدات الطبية في سلة علقها بالحبل ودفعها ليرسلها إلى الشاطئ، ثم تبعها على الفور.

لكن القارب لم يكن بحال جيدة؛ فقد كان الخرق في قاعه كبيرًا، وكانت الأمواج شديدة الارتفاع. اصطدم القارب بالصخور وبدأ يتحطم وألواحه تتساقط عنه واحدًا تلو الآخر. كره الدكتور دوليتل أن يتركه، لكن لم يسعه فعل شيء حيال ذلك، فقال: «سأضطر إلى العثور على طريقة أخرى أسدد بها ديني للصياد.»

أوى الجميع إلى كهف حتى توقف المطر. كان الكهف مريحًا وجافًا مع أنهم كانوا جميعًا مبتلين من أثر العاصفة. وعندما استيقظوا صباحًا كانت الشمس مشرقة، فعادوا إلى الشاطئ الرملي ليجفوا.

قالت بولينيزيا: «آه، أفريقيا الجميلة العتيقة. أتعلمون أنني لم آت إلى هنا منذ أكثر من مائة عام، لكن المكان لم يختلف فيه شيء؛ إنها الشواطئ نفسها، والنخل نفسه. آه، كم العودة إلى الوطن رائعة!»

لاحظ الدكتور دوليتل والحيوانات الأخرى أن عينا بولينيزيا تدمعان. كانت فرحة إلى هذا الحد برؤية موطنها الأصلي من جديد.

هنا صاح الدكتور دوليتل: «آه، لا.» فالتفتت الحيوانات لتنظر إليه؛ وتساءلوا جميعًا ما الأمر.

قال الدكتور دوليتل: «أضعت قبعتي! يبدو أن الريح قد عصفت بها. هذا مؤسف جدًّا؛ فقد أحببت هذه القبعة جدًّا.»

فقالت البطة داب داب إنها ستذهب للبحث عنها، وطارت عائدة فوق المحيط وفي غضون بضع دقائق، وجدت قبعته العالية تطفو على الماء، فهبطت لالتقاطها، لكنها عندئذ لاحظت أن أحد الفئران البيضاء يركب بداخلها.

فسألته: «ما الذي تفعله هنا؟ لقد طلب منك الطبيب أن تمكث في بودلبي.»

فأجاب الفأر: «لكن لدي أقارب في أفريقيا، بالإضافة إلى أن الذهاب في رحلة بحرية استهواني، فاختبأت وسط بعض المتاع وأتيت معكم، وقد حالفني الحظ إلى حد بعيد، إذ طرت أنا والقبعة عن السفينة في آن واحد، فأمسكت بها ومنذ ذلك الحين وأنا أركب بها.»

التقطت داب داب القبعة وبداخلها الفأر وحملتهما عائدة إلى الشاطئ، فاحتشد الجميع حولها لإلقاء نظرة على القبعة.

أجمعوا على أن الفأر لا يستطيع السير في الأدغال بمفرده، فحاولوا أن يجدوا له مكانًا في صندوق أغراض الدكتور دوليتل يستطيع التنقل فيه بارتياح، لكنهم عندئذ سمعوا صوت شيء يشق طريقه بين الأشجار، فكفوا عن الحركة ليرهفوا السمع.

خرج رجل من وسط الأدغال وتأملهم، ثم سألهم عما يفعلونه في هذا المكان.

أجابه الطبيب: «اسمي الدكتور دوليتل، وقد طُلب مني المجيء إلى أفريقيا لمساعدة القردة هنا، فقد أصابها مرض شديد كما تعلم.»

قال الرجل: «عليك أولًا أن تتكلم مع الملك.»

ولما كان الدكتور دوليتل يريد أن يصل إلى القرود على الفور، سأل: «أي ملك؟ أخشى أننا ليس لدينا الوقت لهذا.»

قال الرجل: «كل هذه الأرض خاضعة للملك، والغرباء يجب أن يمثلوا أمامه. اتبعني.»

أدرك الدكتور دوليتل أنه لا جدوى من الجدال، فجمع هو والحيوانات متاعهم وتبعوا الرجل بين الأدغال، وتوقفوا عندما بلغوا ساحة مفتوحة خاوية من الأشجار يقع في أحد أطرافها بناء. كان هذا في الواقع قصر الملك، إلا أنه لم يكن كبيرًا، بل كان في الواقع صغيرًا، لكن بناءه حسن وقوي، يقي من المطر عند هطوله، والمناخ بداخله بارد عند الحر. بعبارة أخرى، كان مثاليًا لسكن الملك والملكة والأمير.

جلس الملك والملكة أمام القصر تحت شمسية كبيرة، الملك يقرأ بعض الأوراق الهامة، فيما نامت الملكة نومًا عميقًا على كرسيها، فلما دنا الدكتور دوليتل والحيوانات، رفع الملك بصره.

وسأل: «ومن أنت؟» لم تبد عليه السعادة بقدوم زوار.

فقال الدكتور دوليتل: «لقد أتينا من أجل القرود.» ثم قص عليه ما حدث ليلة الشتاء الباردة وحكى له عن عصفورة الجنة، وعن الصياد الطيب الذي أقرضه القارب، وعن العاصفة واصطدام القارب بالصخور وغرقه.

قال الملك: «كل هذا مثير جدًّا للاهتمام.» — مع أنه لم يبد عليه الاهتمام على الإطلاق — وأردف قائلًا: «لكنك لا تستطيع المرور عبر أرضي. لقد سمحت لرجل مثلك أن ينتفع بها ذات مرة، وكنت جم اللطف معه في الواقع، لكنه بعدئذ رحل تاركًا حفرًا فيها بعد أن حفرها بحثًا عن الذهب، واختفى في منتصف الليل دون أن يشكرني، فأقسمت ألا أسمح لزائر آخر بأن يستغلني.»

فقال الدكتور دوليتل: «لكننا لا ننوي شرًّا. نود مساعدة القردة المريضة وحسب.»

لكن الملك لم يصغ إليه، وأشار إلى حراسه.

قال: «خذوا هذا الرجل وحيواناته، وزُجوا بهم في السجن. أريدهم أن يغربوا عن وجهي.»

قاد الحراس الطبيب وحيواناته وزجوا بهم في زنزانة حجرية، كانت غرفة صغيرة ذات جدران عالية، بابها قوي سميك وليس بها إلا نافذة واحدة مرتفعة.

الجميع شعروا بالإحباط، إذ لم يتوقع أحد هذا. وأخذ جاب جاب المسكين يبكي، فغضب تشي تشي وأخبره أن يكف عن البكاء.

قال الدكتور دوليتل: «لن يفيدنا التعارك. علينا أن نفكر بوضوح فيما علينا فعله.»

عندئذ لاحظ الدكتور دوليتل أن بولينيزيا ليست معهم، فناداها، لكنه لم يجد جوابًا.

فقال: «لا أظن أنني رأيتها منذ أن كنا نتحدث مع الملك. آه، آمل أن تكون بخير.»

تمتم التمساح في غضب قائلًا: «الأرجح أنها رحلت، وهذا هو المتوقع تمامًا منها! إنها على الأرجح مع أصدقائها القدماء الآن، فقد كانت متحمسة جدًّا لعودتها لأفريقيا. هذا هو كل ما تحدثت عنه، وها قد تركتنا محتجزين هنا.»

قالت بولينيزيا وهي تتسلق خارجة من جيب الدكتور دوليتل: «لست أنا هذا الطائر.»

صاح الدكتور دوليتل قائلًا: «بولينيزيا! كم أنا سعيد برؤيتك.»

قالت هي: «لك أن تسعد، فحجمي صغير بما يكفي للمرور عبر هذه النافذة الصغيرة. لقد خشيت أن يضعوني في قفص، فاختبأت في جيبك.»

قال الطبيب: «يا إلهي. من حسن حظك أنني لم أجلس عليك!»

قالت بولينيزيا: «أصغوا إلي الآن. لدي خطة، وقفزت على مقعد طويل لترى سائر الحيوانات والدكتور دوليتل بوضوح.»

ثم قالت: «الليلة بحلول الظلام، سأتسلل خارجة من النافذة وأطير عائدة إلى القصر، ثم سأجد طريقة لإقناع الملك بأن يسمح لنا بالمرور عبر أرضه.»

سأل جاب جاب الخنزير: «وكيف ستفعلين ذلك؟ لستِ سوى طائر.»

قالت بولينيزيا: «هذا صحيح، لكن عليك أن تتذكر أنني أستطيع أن أتحدث لغة البشر، وأنا واثقة من أنني سأهتدي إلى خطة ذكية.»

من ثم طارت بولينيزيا مساءً والقمر يرسل ضوءه إلى النافذة الصغيرة المرتفعة، وتسللت خارجة منها بسهولة، ثم طارت إلى قصر الملك. كان زجاج إحدى نوافذ القصر محطمًا، فتسلقت بولينيزيا النافذة ودخلت عبر الفتحة الموجودة بالزجاج.

تجولت خلسة في أرجاء القصر إلى أن عثرت على حجرة نوم الملك، ففتحت بابها بهدوء واختلست النظر داخلها. كانت الملكة في حفل راقص، فيما كان الملك على فراشه، يغط في نومه العميق.

انتقلت بولينيزيا بسرعة إلى الجانب الآخر من الغرفة؛ لم تطر لأنها أدركت أن صوت رفرفة جناحيها قد يكون شديد الارتفاع، واختبأت تحت الفراش.

ثم سعلت، وبدا صوتها بالضبط كصوت الدكتور دوليتل؛ فقد كان بمقدورها تقليد صوت أي شخص.

استيقظ الملك وصاح: «أهذا أنت يا عزيزتي؟» ظانًا أن زوجته قد عادت من الحفل الراقص.

سعلت بولينيزيا مجددًا.

فنهض الملك من رقدته وجلس منتصبًا على فراشه ثم قال: «من هذا؟»

فقالت بولينيزيا وقد بدا صوتها بالضبط كصوت الدكتور دوليتل: «أنا الدكتور دوليتل.»

فسأل الملك: «ما الذي تفعله في حجرة نومي.» وتفقد أرجاء الغرفة، لكنه لم يستطع أن يرى شيئًا في الظلام، فقال: «لقد أمرت بحبسك! كيف تجرؤ على الفرار! أين أنت؟ أنا لا أراك.»

ضحكت بولينيزيا ضحكة بطيئة لطيفة خفيضة الصوت كضحكة الدكتور دوليتل.

فصاح الملك: «توقف عن الضحك. تعال هنا فورًا لأراك.» كان القلق قد بدأ يتسلل إلى نفسه.

قالت بولينيزيا محاولة أن ترفع صوتها قدر الإمكان: «أيها الملك الأحمق، هل نسيت أنك تحدث الطبيب العظيم دوليتل؟ بالطبع لن تراني، فقد جعلت نفسي غير مرئي. ليس هناك ما أعجز عن فعله.»

فصاح الملك: «لم أنت هنا؟»

فقالت بولينيزيا: «جئت لأحذرك، إن لم تطلق سراحي أنا وحيواناتي، فسأبتلي أرضك بمرض، فأنا قادر بلا شك على إصابة الناس بالمرض، تمامًا كما أنا قادر على شفائهم.»

لم يسر بولينيزيا أن تكذب، لكنها لم تدر ما الذي عساها أن تفعله غير ذلك. لم تجد بدًّا من خداع الملك.

فصاح الملك: «ما كنت لتفعل شيئًا كهذا، هل يمكن أن تفعل هذا حقًا؟»

قالت بولينيزيا: «أخشى هذا. يجب أن تطلق سراحنا جميعًا، وتسمح لنا بالمرور عبر أرضك. تذكر يا جلالة الملك، إياك أن تفقدني صبري.»

بدأ الملك يرتعد، وقفز من فراشه ثم صاح: «ستُنفذ مشيئتك أيها الطبيب. سأعالج الأمر فورًا.» ثم هرع خارجًا من باب غرفته ليحدث الحراس.

زحفت بولينيزيا خلسة من تحت الفراش ما إن غادر الملك الغرفة وطارت مسرعة هابطة درج القصر وغادرته عبر نافذة المطبخ.

لكن لسوء الحظ كانت الملكة عائدة إلى القصر في الوقت نفسه ورأت بولينيزيا وهي تتسلل خلسة من النافذة. حسبت هذا أمرًا غريبًا، فلما عادت إلى حجرة نومها، أخبرها الملك عن زائره الغامض، فأدركت على الفور حقيقة ما حدث.

وقالت له: «يا لك من أحمق! لم يكن هذا الطبيب، بل ببغاؤه. لقد رأيتها تغادر من نافذة المطبخ. لقد خدعتك!»

استشاط الملك غضبًا وهرع إلى السجن، لكن كان الأوان قد فات على ذلك؛ إذ كان الحراس قد فتحوا باب الزنزانة بالفعل، ورحل عنها الطبيب والحيوانات.

الفصل السابع

جسر القرود

غضب الملك غضبًا شديدًا! وجافاه النوم طوال الليل، ودار في أرجاء غرفته في سخط ملوحًا بقبضته.

قال: «كيف يجرءون على خداعي هكذا! لا يستطيع أحد أن يعاملني بهذه الطريقة! أنا الملك!» واتهم الجميع بالحمق، وألقى فرشاة أسنانه على قطة القصر.

لم تر الملكة زوجها غاضبًا إلى هذا الحد من قبل، لكنها أدركت أنه يشعر بالحرج، فمن الصعب أن يقر بأن ببغاء خدعه.

أرسل الملك جميع حراسه إلى الأدغال للقبض على الدكتور دوليتل، ثم أرسل أيضًا جميع طاقم القصر؛ من الطهاة والخادمات ومدبرات المنزل، وحتى الملكة أرسلها في إحدى مجموعات البحث عن الدكتور دوليتل.

في الوقت نفسه، كان الدكتور دوليتل وحيواناته يندفعون بين الأدغال، فقد فطنوا إلى أن عليهم بلوغ القرود المريضة في أقصر وقت ممكن، وتوقعوا أن يكتشف الملك في نهاية الأمر خدعتهم ويرسل في إثرهم حراسه، لكنهم لسوء الحظ لم يعوا السرعة التي كُشف بها أمرهم.

كانت ساقا جاب جاب الخنزير قصيرتين، فشعر في غضون وقت قصير جدًّا بالتعب، فحمله الطبيب. وهذا جعل رحلتهم أصعب، واضطروا أيضًا إلى جر الصندوق المليء بالأدوية معهم.

حسب الملك أن العثور على الدكتور دوليتل وأصدقائه سيكون سهلًا، ورأى أنهم سيضلون طريقهم بسهولة في الأدغال، غير أنه كان مخطئًا. كان القرد تشي تشي على دراية بدروب تلك الأرض، من ثم ساعد الطبيب وسائر الحيوانات في الإسراع، إذ كان يعلم السبل المختصرة التي تؤدي إلى أرض القرود.

أيضًا كان تشي تشي وبولينيزيا على دراية بكل أنواع الفاكهة التي تنبتها الأدغال، الأمر الذي أجدى نفعًا كبيرًا. وقد علما أين يمكن العثور على الماء، إذ إن الطبيب والحيوانات اضطروا للسفر لعدة أيام، ووجدا للطبيب والحيوانات التين والبلح وجوز الهند، وعلما كيف يصنعان شرابًا لذيذًا من البرتقال والعسل.

نام الطبيب والحيوانات ليلًا في خيمة من سعف النخيل، وصنعوا أسرة سميكة لينة مريحة جدًّا من العشب المجفف، وناموا جميعًا نومًا هانئًا.

كان الارتياح بعد كل هذا السير جيدًا. أشعل الدكتور دوليتل نارًا باستخدام فروع الأشجار وأوراقها، وجلس هو والحيوانات بعد العشاء في دائرة حول النيران، ينشدون الأغاني، وروى تشي تشي أحيانًا القصص عن الأدغال.

كان القرد يعرف الكثير من القصص، ولأن القردة لا تملك كتب تاريخ ولا تُدون ما يذكرها بجميع حكاياتها، تحافظ على قصصها بروايتها مرارًا وتكرارًا. تعلم تشي تشي كل القصص التي يرويها من والديه، وهما تعلماها من والديهما. وبذا لم يضع تاريخ وقَصَص القرود.

عاد بعض هذه القصص إلى زمن شديد القدم. كان لدى تشي تشي قصص تعود إلى عصور كان الإنسان فيها لا يزال يسكن الكهوف ويرتدي جلود الحيوانات؛ كان هذا قبل أن يعرف الإنسان النار. حكى تشي تشي أيضًا للحيوانات عن حيوانات الماموث الضخمة التي كانت تأكل بتأن أوراق قمم الأشجار، وعن السحالي التي امتلكت ذيولًا طويلة بطول القطارات، وأسهب في الحديث أحيانًا إلى أن خمدت النيران ولم تعد إلا رمادًا. عندئذ كانوا جميعًا يضطرون إلى التجول في المكان بسرعة بحثًا عن المزيد من العصي لإشعال نار جديدة.

بعد الليلة الأولى من البحث في الأدغال، عاد حراس الملك وطاقمه إلى القصر وغضب الملك لأنهم لم يعودوا بالسجناء، فأمرهم بالعودة من حيث أتوا، وقال: «لا تعودوا إلا بعد أن تقبضوا على الطبيب!»

بعبارة أخرى، في الوقت الذي شق فيه الدكتور دوليتل والحيوانات طريقهم وسط الأدغال، حاسبين أنهم قد نأوا بأنفسهم عن الخطر، كان هناك من يتبعهم. لو علم تشي تشي بهذا، لحرص أكثر على أن يتخفوا.

تسلق تشي تشي يومًا ما قمة إحدى الأشجار، وتأمل اليابسة الممتدة أمامهم، ثم هبط الشجرة في حماس وقال: «لقد اقتربنا من أرض القردة، سنبلغها قريبًا.»

بعد مرور ساعة أو اثنتين، فاجأتهم مجموعة من القرود، أحدهم كان ابن عم تشي تشي. كانت مجموعة القردة تجلس على الأشجار بالقرب من حافة مستنقع في انتظارهم، فلما رأوا الدكتور دوليتل يدنو أخذوا يصيحون ويلوحون بأوراق الأشجار ويقفزون.

وأحاط الكثير منهم بالطبيب والحيوانات، وأخذوا حقيبة الدكتور دوليتل وصندوقه، بل وساعدوا أيضًا في حمل جاب جاب، وركض بعضهم متقدمًا الآخرين ليخبر سائر القردة بأن الدكتور دوليتل قد وصل.

لكن رجال الملك كانوا إلى تلك اللحظة يتبعون الطبيب والحيوانات، ولما سمعوا القردة تهلل عرفوا أن الطبيب والحيوانات قريبون، فسارعوا بالاتجاه نحو مصدر الضوضاء للقبض على الطبيب وحيواناته كي يعودوا جميعًا إلى بيوتهم.

كان القرد الذي تطوع لحمل جاب جاب يسير ببطء وتثاقل في أثر الآخرين وهم يتجهون نحو قرية القرود. تنامت إلى سمعه ضوضاء، فالتفت، فأبصر قائد حرس الملك وهو يتسلل خلسة بين الأشجار، فعجل السير ليدرك الطبيب.

أبصر قائد الحرس القرد وهو يسرع في سيره، فأخذ هو بدوره يركض، وتبعه جميع الحراس. ركضوا بسرعة وبلا توقف كما لم يركضوا من قبل موقنين بأنهم قد أوشكوا على القبض على الدكتور دوليتل وأصدقائه.

كان الجميع يركض! الدكتور دوليتل، وحيواناته، والقرود وحراس الملك. إلا أن الطبيب المسكين لم يعتد القيام بمثل هذا الجهد، فانزلق ووقع أرضًا في الطين، وأبصره قائد الحرس، فأيقن أنه سيمسك بالطبيب أخيرًا.

لكن في اللحظة نفسها، وقع القائد بدوره، إذ لم يلحظ قردين كانا بانتظاره؛ وضعا عصا امتدت بعرض الطريق ليتعثر بها القائد. وما إن وقع ركضت القردة مبتعدة بسرعة. منح هذا الطبيب بعض الوقت للنهوض، فركض قُدمًا بسرعة خلف القردة.

صاح تشي تشي للجميع: «لا تقلقوا. أوشكنا على الوصول.» لكن كانت هناك عقبة أخرى؛ انتهت أرض الملك عند جرف شديد الانحدار، يجري تحته على عمق كبير نهر؛ وعلى الناحية الأخرى منه جرف آخر شديد الانحدار تقع عليه أرض القردة.

تطلع جيب إلى أرض القردة على الناحية الأخرى من تلك الهوة ثم قال: «يا للهول! كيف سنعبر؟ سيأتي حراس الملك في أي لحظة.»

أوقع القرد الكبير الخنزير جاب جاب الذي كان يحمله، وصاح: «بسرعة! جسر! علينا أن نصنع جسرًا!»

تلفت الطبيب حوله وتساءل ما الذي سيستخدمونه لصنع الجسر. كان هناك عدد قليل من قطع الخشب حولهم، لكنه لا يكفي لصنع جسر، فنظر إلى الأدغال متسائلًا ما الذي فاتته ملاحظته، فلما عاود الالتفات إلى الهوة، وجد القرود قد صنعوا بالفعل جسرًا؛ جسرًا من أجسامهم هم! تشابكت أيديهم وأرجلهم ومددوا أجسادهم عبر الهوة التي تفصل بين أرض الملك وأرض القرود.

وصاحوا للطبيب بأن عليه العبور قائلين: «مروا! بسرعة! مروا جميعًا!»

كان الدكتور دوليتل هو آخر من عبر، وفي اللحظة نفسها التي عبر فيها إلى الناحية الأخرى من الجسر، بلغ رجال الملك الجرف، فلوحوا بقبضتهم، وصرخوا بغضب لما أدركوا أنهم أتوا بعد فوات الأوان. وبلغ الطبيب والحيوانات أرض القرود بسلام، وجذبت القردة بعضها بعضًا إلى الناحية الأخرى من الجسر.

قال تشي تشي: «يجب أن تعلم يا حضرة الطبيب أن الكثير من المستكشفين والعلماء مكثوا خلسة بين الشجيرات آملين أن يروا هذا الجسر، لكننا لم نسمح لأحد من البشر أن يطَّلع على هذه الحيلة. أنت أول من يرى جسر القردة.» فقال الدكتور دوليتل إنه شديد السرور بذلك.

كان الدكتور دوليتل يود الاسترخاء بعدما بلغ الجميع بسلام أرض القرود، لكن لم يكن هناك وقت لذلك، فبدأ على الفور في مساعدة القردة المريضة.

الفصل الثامن

زعيم السباع

أول مهمة باشرها الدكتور دوليتل هي فصل القردة المريضة عن القردة غير المريضة، ثم طلب من تشي تشي وابن عمه أن يبنيا كوخًا من القش، وجلب إليه كل القردة غير المصابة بالمرض وحقنها في ذراعها بإبرة حقن تمتلئ بالأدوية. تخوفت القردة في البداية من إبرة الحقن، لكنها بعدئذ أدركت أنها ستمنعها من الإصابة بالمرض الذي يصيب القرود، فأتت من كل التلال والوديان المحيطة بأرض القردة، واستغرق تطعيم كل القردة ثلاثة أيام كاملة.

بنى تشي تشي وابن عمه أيضًا بيتًا آخر، حوى الكثير من الأسِرة، أودع فيه الطبيب القِردة المريضة.

لكن عدد القِردة المريضة كان كبيرًا، ولم يكن هناك عدد كاف من القردة غير المصابة للعناية بهم، فأرسل الدكتور دوليتل في الأدغال داعيًا الحيوانات الأخرى أن تأتي للمساعدة، فأتت الفهود والظباء والزرافات لذلك.

لكن الحال اختلفت مع السباع، فزعيمها كان شديد الأنفة، أتى إلى كوخ القِردة المريضة ليحادث الطبيب.

فسأله: «هل تتوقع مني حقًّا أن أساعد القردة. أنا ملك السباع، وملك جميع الضواري! ليس لدي وقت أضيعه مع قِردة مريضة!»

كان صوته مخيفًا، فحاول الدكتور دوليتل قدر استطاعته ألا يبدو عليه الخوف وقال له: «أصغ إلي. قد يأتي يوم تمرض فيه السباع، إن لم تساعد القردة الآن فقد لا تجد السباع من يساعدها عندما تحتاج إلى المساعدة.»

فصاح زعيم السباع قائلًا: «السباع لا تواجه المشاكل قط، إنها تصنعها فقط.» وسار عائدًا إلى الغابة حاسبًا نفسه شديد الذكاء والدهاء.

وعندما سمعت الفهود بأمر السباع، غادرت هي أيضًا. ثم قالت الظباء إنها لا تعلم شيئًا عن العناية بالقرود، إذ منعها خجلها الشديد من الحديث كالأسد، ونبشت الأرض بحوافرها ولم تنظر حتى إلى الدكتور دوليتل في عينيه وهي تخبره بهذا.

شعر الدكتور دوليتل بقلق بالغ. كيف سيعنى بجميع القِردة المريضة دون مساعدة الحيوانات الأخرى؟

لما عاد زعيم السباع إلى عرينه، هرعت زوجته لمقابلته إذ كانت في شدة الانزعاج.

قالت: «أحد الأشبال يرفض تناول الطعام. لا أدري ما الذي يجب علي فعله! لم يأكل شيئًا منذ مساء البارحة.» ثم أخذت في البكاء.

دخل زعيم السباع عرينه ليتفقد حال صغيره، فركض أحد صغاره للقائه بفرح ولهفة كعادته. أما الشبل الآخر، فلم يبد أنه بحال جيدة، بل تمدد في فراشه ولم يبتسم إلا ابتسامة واهنة لأبيه، فطبع زعيم السباع قبلة على جبين كل من شبليه.

أخبر زعيم السباع زوجته التي انتظرته خارج العرين عن لقائه بالدكتور دوليتل قائلًا: «لقد أراد منا أن نعنى بالقِردة المريضة. بالقِردة! فقلت له إن السباع لا يمكن أبدًا أن تفعل شيئًا كهذا.»

فقالت زوجته: «ماذا قلت؟!» ثم أردفت غاضبة: «لم قلت هذا؟!»

صُدم زعيم السباع من ردة فعل زوجته، فجلس بهدوء يصغي إليها.

فتابعت الزوجة كلامها قائلة: «كل الحيوانات تتحدث عن هذا الرجل الرائع، وتقول إن بإمكانه شفاء جميع الأمراض، وهو جم اللطف. إنه البشري الوحيد في العالم كله الذي يستطيع أن يتحدث لغة الحيوانات، وها أنت تسيء إليه في الوقت الذي مرض فيه أحد صغارنا!»

فتلعثم زعيم السباع قائلًا: «لكن ... لكن ... يا عزيزتي.»

فصاحت فيه قائلة: «عد إلى الطبيب الآن! واعتذر إليه، واصحب معك جميع السباع وسائر الحيوانات كلها، وافعل كل ما يطلبه الطبيب منك. إن حالفنا الحظ، فسيأتي لاحقًا لتفقد حال صغيرنا المريض.»

فعاد السبع إلى الدكتور دوليتل، وقال: «صادف أنني مارٌّ بهذا الطريق، لقد ارتأيت أن أزورك زيارة سريعة. هل وجدت من يساعدك؟»

فقال الدكتور دوليتل: «لا. لم أجد، وأشعر بقلق بالغ.»

فقال السبع: «هذا مؤسف جدًّا.» وحاول ألا يبدو عليه الحرج، ثم أردف قائلًا: «بما إنك تواجه صعوبة إلى هذا الحد، أظن أن بإمكاني أن أقدم لك بعض المساعدة.»

فقال الدكتور دوليتل: «أشكرك. كم هذا لطيف منك!»

فقال السبع: «لقد أمرت الفهود بالعودة، وستضطلع الظباء أيضًا بنصيبها من العمل.»

فقال الدكتور دوليتل: «هذا حقًّا لطيف منك. سنباشر العمل على الفور!»

فقال الأسد: «آه، ثمة شيء آخر. لدينا شبل مريض. أنا واثق من أن الأمر هين، لكن زوجتي تشعر بالقلق، لعل بإمكانك أن تعرج علينا عندما ينتهي عملك هنا.»

فقال الدكتور دوليتل: «بالطبع، بالطبع. في أقرب وقت ممكن.» وشعر بسعادة بالغة، فقد لاح أخيرًا أمل في شفاء القردة.

وعادت جميع حيوانات الأدغال لمساعدة الدكتور دوليتل، وكان عددها في الواقع كبيرًا جدًّا حتى إن الطبيب اضطر إلى صرف بعضها، وشُفي نصف القردة المريضة بعد الأسبوع الأول، وبنهاية الأسبوع الثاني شُفيت جميعًا.

انتهت مهمة الدكتور دوليتل. وكان بعدها يشعر بالتعب الشديد، فخلد إلى النوم، ونام ثلاثة أيام لم يتقلب فيها من فرط التعب.

الفصل التاسع

مجلس القردة

أول ما فعله الدكتور دوليتل عندما نهض من نومه هو أن أعلن أنه مضطر إلى المغادرة، فقال: «علي أن أعود إلى بودلبي. لقد طال غيابي.»

دهشت جميع حيوانات الأدغال من سماع هذا، فقد حسبوا جميعًا أن الطبيب سيمكث معهم إلى الأبد، فاجتمعت القردة مساء ذلك اليوم لمناقشة الأمر.

نهض زعيم قردة الشمبانزي أولًا وقال: «لماذا سيغادر؟ أليس سعيدًا معنا؟»

فنهض كبير قردة الغوريلا وقال: «أعتقد أن علينا أن نطلب منه البقاء، لعله يمكث إن بنينا له منزلًا أكبر وفراشًا مريحًا.»

ونهض تشي تشي ليتحدث، فتهامست سائر القردة وقالت فيما بينها: «صه! تشي تشي سيتحدث.»

قال تشي تشي: «أيها الأصدقاء، يؤسفني أن طلب البقاء من الطبيب لن يجدي نفعًا؛ فلديه الكثير من الواجبات في بودلبي، وثمة حيوانات أخرى تنتظره هناك، ولا بد أن قلق حصانه قد اشتد بحلول هذا الوقت، وقد خلف هناك أصدقاء، كما تلطف صياد بإقراضه قاربًا تحطم على بعض الصخور، وعلى الدكتور دوليتل أن يجد بديلًا له. ليس من العدل أن يبقى هنا.»

صمتت القردة بعض الوقت، وجلست على الأرض تفكر بعمق، وفي آخر الأمر نهض أحد قرود البابون قائلًا: «أظن أن علينا ألا نترك هذا الرجل الطيب يغادر دون إهدائه شيئًا. يجب أن نفكر في هدية رائعة لشكره على كل مجهوده، فعليه أن يعلم مدى امتناننا له.»

نهض قرد أحمر صغير يجلس في مؤخرة الحشد وقال: «أؤيد هذا! علينا أن نجد له أفضل هدية.»

فصاح قرد آخر: «علينا أن نعطيه حقيبة ممتلئة بجوز الهند!»

وقال آخر: «لنعطه مائة حزمة من الموز.»

فهز تشي تشي رأسه نفيًا وقال: «هذه أفكار رائعة، لكن حمل هذه الهدايا إلى بودلبي سيكون ثقيلًا، كما أنها على الأرجح ستفسد قبل أن يُؤكل نصفها.»

فقال القرد الأحمر الصغير: «وجدتها! عرفت بالتحديد ما الذي علينا أن نهديه إياه. علينا أن نهديه ظبي بوشميبوليو.»

فقال تشي تشي: «هذه فكرة رائعة! لم ير أحد قط في بودلبي ناقة بوشمبوليو. رائع!»

الفصل العاشر

الحيوان الأندر على الإطلاق

ظباء البوشميبوليو هي حيوانات منقرضة؛ لم يعد لها وجود في أي مكان على وجه الأرض. لكن أدغال أفريقيا في عهد الدكتور دوليتل احتضنت عددًا قليلًا منها، غير أنها كانت شديدة الندرة، حتى في هذا العهد.

لم يكن لظباء البوشميبوليو ذيل، بل رأس في المقدمة وآخر في المؤخرة. ويبرز من كل رأس قرن حاد. وهي حيوانات شديدة الخجل، يصعب بشدة الإمساك بها، ولا يمكنك الاقتراب منها خلسة، فبإمكانها دائمًا أن تراك وأنت تقترب. وكل من رأسيها ينام في وقت مختلف عن الرأس الآخر؛ لذا لم يقتنص قط أي من هذه الحيوانات. حاول الكثير من الصيادين هذا سنوات، لكن لم يفلح أي منهم.

لذا سعت القردة إلى العثور على أحدها. وفي نقطة على بعد عدة أميال بجوف الأدغال، لمح أحدهم آثار حوافر غريبة حديثة، فأدركوا أن أحد ظباء البوشميبوليو بالجوار.

ساروا على ضفة النهر متتبعين أثر الحوافر، ولاحظوا مكانًا ينمو فيه العشب الطويل بغزارة. كان هذا هو المخبأ النموذجي لظباء البوشميبوليو.

تضافرت القردة وصنعت دائرة كبيرة حول تلك المنطقة الممتلئة بالعشب، فسمعها الظبي وحاول الفرار، لكنه لم يستطع أن يفلت من الدائرة التي صنعها القرود. ولما لم يجد جدوى من الفرار، جلس لينتظر ما الذي سيحدث بعد.

قال كبير قردة الغوريلا: «نود أن نطلب منك معروفًا. هلا ذهبت إلى بودلبي مع الدكتور دوليتل؟ نحن نشعر بالامتنان له لكل ما فعله من أجلنا، ونود أن نعطيه شيئًا مميزًا.»

قال الظبي: «قطعًا لا. لن أفعل هذا قط!»

أوضحت له القردة أنه لن يودع حديقة حيوانات، وإنما سيحيا مع الدكتور دوليتل في منزله حياة رائعة.

هز البوشميبوليو رأسه نفيًا وقال: «لا. أنتم تعلمون كم أنا خجول. سأكره التحديق بي.»

فحاولت القردة إقناعه بأنه سيتمتع بالحياة مع الطبيب الطيب.

استغرق الأمر بعض الوقت ليوافق البوشميبوليو على لقاء الدكتور دوليتل، فإن أعجبه الطبيب، فسيفكر في الذهاب معه.

عاد البوشميبوليو والقردة إلى كوخ الطبيب المصنوع من العشب وطرقوا بابه. كانت البطة داب داب تجهز صندوق أغراض الطبيب، فالتفتت إلى الباب وقالت: «ادخل.»

فأدخل تشي تشي البوشميبوليو شاعرًا بالفخر الشديد.

صاح الدكتور دوليتل في دهشة: «عجبًا! ما هذا بحق السماء؟»

وقالت داب داب: «يا إلهي!» ونظرت إلى الظبي العجيب الذي تبرز من مقدمة جسده رأس ومن مؤخرته رأس أخرى، وقالت: «وا دهشتاه! كيف يحسم أمره؟»

قال تشي تشي: «هذا ظبي البوشمبوليو. إنه الحيوان الأندر في أدغال أفريقيا، وهو الحيوان الوحيد في العالم الذي يمتلك رأسين. إن صحبته معك إلى منزلك، فستحل جميع مشاكلك المالية، إذ سيدفع الناس أي قدر من المال لرؤيته.»

فقال الدكتور دوليتل: «ولكنني لا أريد أي مال.»

قالت داب داب: «بل تريد. دائمًا تنسى أننا بحاجة إلى المال لنعيش.»

سأل جيب: «ألا تذكر أننا اضطررنا إلى الاقتصاد والادخار؟ وأيضًا اقترضنا قارب الصياد، وقد دمر. كيف سنسدد ما ندين له به إن لم تكن معنا أي نقود.»

فقال الدكتور دوليتل بحرج: «كنت سأبني له قاربًا.»

فصاحت داب داب: «آه! تعقل! أنت لست نجارًا ولم تبن قط شيئًا من الخشب. لن يكون لديك أدنى فكرة عن كيفية صنعه. تشي تشي محق. نحن بحاجة إلى اصطحاب هذا المخلوق العجيب معنا.»

فتمتم الطبيب قائلًا: «أتفَهَّمُ رأيك، لكنني لا أرى أن الظبي سيجد هذا لطيفًا. أكره أن يغادر هذا المكان الجميل ليصبح مخلوقًا للعرض. لا يبدو هذا عدلًا، لكن هل سيود — أنا آسف، لقد نسيت اسمه — الذهاب معنا إلى بودلبي؟»

عندئذ قال البوشميبوليو: «نعم سأذهب معكم.» فقد فطن على الفور إلى أن الدكتور دوليتل يمكن الثقة به، ثم أردف قائلًا: «لقد كنت جم اللطف مع الحيوانات هنا، والقردة تخبرني بأنني الحيوان الوحيد الذي سيفي بحاجتك، لكن عليك أن تعدني بشيء واحد.»

قال الدكتور دوليتل: «لك هذا بالطبع. أعدك بما تشاء.»

قال البوشميبوليو: «عليك أن تعد بأنك ستعيدني إلى هنا إن لم تعجبني الحياة في أرضك.»

قال الدكتور دوليتل: «لك هذا بالطبع، لكن — لا تؤاخذني — هل لي أن أسألك سؤالًا؟»

قال البوشميبوليو: «تفضل.»

فأخذ الدكتور دوليتل كتابه من جيبه وأخذ يدون بعض الملاحظات، ثم قال: «لاحظت أنك تتحدث بفم واحد فقط، فهل تستطيع أن تتحدث بالفم الآخر.»

أجاب البوشميبوليو: «بالطبع، لكنني أحب أن أترك الفم الآخر لتناول الطعام، بذا أستطيع أن أتحدث وأنا آكل دون أن يبدو هذا فظًّا.»

ولما انتهى حزم الحقائب، أعدت لهم القردة حفلًا أتت إليه جميع حيوانات الغابة، وتناولت فيه ثمار الأناناس والمانجو والعسل. كان بالحفل كل ما طاب من الطعام والشراب.

ونهض الطبيب وألقى خطابًا قال فيه:

> «أصدقائي. لم أُجِد قط إلقاء الخطابات، لكنني سأحاول هذا. كنت أتمنى أن يُتاح لي المكوث بينكم لكن لدي الكثير من الواجبات في موطني. ومع أن ظروفًا بائسة هي التي دعتني إلى القدوم إلى هنا، إلا أنني سعيد بأنني قَدِمت وقدَّمت المساعدة.»

فهللت جميع الحيوانات وحيت الطبيب الطيب.

وتابع الطبيب كلامه قائلًا: «رجاء تذكروا ألا تتركوا الذباب يقف على الطعام قبل أن تأكلوه، ولا تناموا على الأرض عند هطول المطر.» وتوقف الطبيب لحظة ثم تابع كلامه قائلًا: «وآمل بصدق أن تعيشوا جميعًا حياة سعيدة إلى الأبد.»

دحرج كبير قردة الغوريلا حجرًا كبيرًا ووضعه بجانب باب كوخ الدكتور دوليتل، ثم قال: «هذا الحجر تذكار للمكان الذي أقام فيه الدكتور دوليتل. الطبيب العظيم الذي قطع مسافة طويلة لينقذ قردة أدغال أفريقيا.»

وهللت الحيوانات مجددًا ودمعت عينا الطبيب؛ إذ كان هذا عرفانًا هائلًا بفضله. وستجد الحجر لا يزال قائمًا إلى اليوم إن قصدت أدغال أفريقيا.

بعدما انتهى الحفل اتجه الطبيب وحيواناته إلى الشاطئ، وصحبتهم جميع القرود إلى أطراف أرضهم حاملين صندوق أغراض الطبيب وحقائبه لوداعه هو وحيواناته.

الفصل الحادي عشر

قصة الأمير

توقف الطبيب وحيواناته لوداع الحيوانات الأخرى عند ضفاف النهر وقتًا طويلًا؛ إذ أرادت جميع القرود أن تصافح يد الدكتور دوليتل.

قالت بولينيزيا فيما بعد والطبيب وحيواناته يسيرون وحدهم: «علينا بالحذر. سنمر بأرض الملك ثانية، وأنا واثقة من أنه لا يزال غاضبًا منا، فقد احتلنا عليه حيلة رهيبة.»

قال الدكتور دوليتل: «أجل، لكن كيف سنحصل على قارب آخر نصل به إلى بودلبي؟ أجد هذا مقلقًا. لا أدري إن كان الحظ سيحالفنا فنجد من يتمتع بكرم صديقنا الصياد في بودلبي.»

استغرقت العودة سيرًا عدة أيام. وفي أحد الأيام أثناء مرور الطبيب والحيوانات بنقطة كثيفة النباتات من الأدغال، تقدم تشي تشي سائر المجموعة بحثًا عن جوز الهند، لكن للأسف أثناء غيابه ضل الطبيب والحيوانات الأخرى طريقهم، فجابوا الأدغال كثيرًا لكنهم لم يعثروا على الطريق إلى الشاطئ.

انزعج تشي تشي عندما أدرك أن أصدقاءه قد ضلوا طريقهم، فتسلق الأشجار إلى ارتفاع كبير لتتاح له الرؤية على نحو أفضل، وبحث عن قبعة الطبيب العالية، لكنه لم يجدها، فصاح ولوح بيديه، وصفق، لكن بلا جدوى. وبدا وكأن الطبيب والحيوانات الأخرى قد تبخروا!

كان الطبيب والحيوانات الأخرى قد ضلوا طريقهم بالفعل، وشردوا في طريق العودة وسط الأدغال التي تنمو فيها الشجيرات والنباتات المتسلقة بكثافة إلى حد تتعذر معه الحركة بينها، فاستخدم الدكتور دوليتل سكينًا ليشق له هو والحيوانات طريقًا بين أغصان الأشجار، لكنهم تعثروا وسقطوا في مناطق ذات أرض موحلة، وأصابتهم أشواك النباتات بخدوش. وبدا أن معاناتهم لن تنتهي، وأنهم لن يهتدوا إلى طريق العودة.

لكنهم بعد ساعات من التجوال في الأدغال، عثروا مصادفة على حديقة الملك الخلفية، فهرع رجال الملك إليهم على الفور وألقوا القبض عليهم.

لكن بولينيزيا — التي كانت دائمًا سريعة البديهة — طارت بعيدًا بين قمم الأشجار قبل أن يبصرها رجال الملك، فيما اقتيد الطبيب وسائر الحيوانات إلى الملك.

قال الملك عندما رآهم: «آه. إذن فقد أُلقي القبض عليكم مجددًا، لكنكم لن تفروا هذه المرة. هذا الطبيب الذي يحسب نفسه شديد الدهاء سيمضي بقية حياته في مسح أرض مطبخي. أيها الحراس! خذوهم إلى السجن.»

اقتيد الطبيب وحيواناته مجددًا إلى الزنزانة الصغيرة التي زجوا بها من قبل وجميعهم في غاية الاضطراب.

قال الدكتور دوليتل: «كم هذا مؤسف! علي أن أعود إلى بودلبي؛ سيحسب الصياد أنني قد سرقت القارب، ولا بد أن الحيوانات بحاجة إلى من يرعاها الآن.»

كانت بولينيزيا طوال هذا الوقت تجلس على شجرة طويلة، وفيما كانت تتطلع إلى مكان بعيد، رأت تشي تشي يتأرجح بين الأشجار، كان حتى تلك اللحظة يبحث عن الطبيب والحيوانات الأخرى، فلما أبصرها أتى سريعًا إلى جانبها، وسألها عما حدث للباقين.

أجابته همسًا: «ألقى رجال الملك القبض على الطبيب وجميع الحيوانات، إذ ضللنا الطريق بين الأدغال، وانتهى بنا المطاف مصادفة إلى حديقة الملك الخلفية.»

سألها تشي تشي: «ألم يكن بإمكانك أن ترشديهم؟ أنت على دراية بطرق الأدغال.» وأخذ يوبخها على عدم اعتنائها بهم عندما كان يبحث عن جوز الهند.

أجابت بولينيزيا: «كل هذا كان خطأ الخنزير، لقد ظل يركض مبتعدًا باحثًا عن جذور يأكلها وغير ذلك من الطعام اللذيذ، فاضطررت إلى البحث عنه مرارًا وتكرارًا حتى نسيتُ أين انعطفتُ يمينًا وأين انعطفت يسارًا.»

قال تشي تشي واضعًا إصبعه على شفتيه: «حاذري! انظري؛ الأمير يجول الغابة. يجب أن نحرص على ألا يلحظنا.»

لم يبد الأمير سعيدًا؛ إذ جلس تحت شجرة وهو مطرق الرأس حاملًا كتابًا، فتحه لكن لم يبدأ في قراءته، بل تصفحه وتنهد.

ثم قال بصوت مسموع: «لو أنني أحيا في هذه القصص. أنا أمير، وأحيا بقصر، لكنه ليس كقصور القصص الخيالية. قصرنا ليس فخمًا، ولا أملك الكثير من الأشياء الجميلة. أتمنى أن أبدو كأبطال هذه القصص، أتمنى أن تكون هذه حياتي!»

أغمض الأمير عينيه وضم الكتاب إلى صدره ثم تنهد ثانية.

طرأت لتشي تشي فجأة فكرة، وهمس بها لبولينيزيا، فأومأت برأسها ثم طارت إلى غصن أقرب إلى الأمير.

وقالت بصوت مرتفع حانٍ لطيف: «أيها الأمير الشاب!» — إذ لم ترد أن تخيفه، بل أرادت أن يبدو له صوتها ودودًا — ثم كررت صياحها قائلة: «أيها الأمير الشاب!»

ففتح الأمير عينيه، وتلفت حوله لكنه لم يبصر أحدًا، ولم يفكر في البحث بين الأشجار؛ إذ لم يخطر له أن من يكلمه ببغاء.

ثم قال: «نعم؟ من هناك؟»

قالت بولينيزيا: «لا يهم من أنا. أتيت لأخبرك بأمر شديد الأهمية.»

قال الأمير: «لا أفهمك.» كان بالرغم من كل محاولات بولينيزيا يشعر بالتوتر.

قالت بولينيزيا: «أنا ملكة الجنيات. لقد سمعت أمنيتك.»

فسأل الأمير الذي سمع من قبل قصصًا عن ملكة الجنيات، لكن لم يحسب أنها حقيقية بالفعل: «أحقًّا؟»

أجابته بولينيزيا: «أجل، أستطيع أن أسمع أماني كل من بالأدغال، لكنني لسوء الحظ لا أملك الوقت لمساعدتهم جميعًا، فلا يسعني إلا اختيار المميزين والأماني المميزة.»

كان هذا نبأ مشوقًا، فسأل الأمير وقد اعتدل في جلسته: «وهل أنت هنا لتحققي لي أمنيتي؟»

أجابته بولينيزيا: «أنت تود أن تبدو كأبطال القصص الخيالية وتتصرف مثلهم. أليس كذلك؟»

صاح الأمير فرحًا: «أجل! أجل! أرجوك!» كان قبل وهلة يشعر بالحزن الشديد، أما الآن فسيصبح بطل إحدى القصص الخيالية!

تابعت بولينيزيا كلامها قائلة: «مع أنني ملكة الجنيات، فلن أستطيع مساعدتك وحدي.»

فسأل الأمير: «ما الذي ينبغي لي فعله؟»

فأجابته بولينيزيا: «عليك أن تلتقي بالدكتور دوليتل؛ أذكى رجل في العالم، وهو سيحقق لك أحلامك.»

– «الدكتور دوليتل؟ لكن كيف سأعثر عليه؟ لستُ إلا أميرًا شابًا، أحيا في بقعة نائية.»

قالت بولينيزيا: «لكنك أمير محظوظ. لقد تصادف أن الدكتور دوليتل هنا الآن! وهو يقبع في سجن والدك. إنه على دراية بكل أمور السحر والطب، وهو الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتك.»

فقال الأمير: «لكن ماذا عساي أن أفعل؟»

قالت بولينيزيا: «يجب بالطبع أن تلتقي الطبيب، لكن سرًّا. انتظر مغرب الشمس، ثم تسلل إلى السجن وحدثه. سيعرف كيف يساعدك بالضبط. علي أن أغادر الآن، فيجب أن أعود إلى أرض الجنيات.»

قال الأمير: «أشكرك يا ملكة الجنيات!» ولوح بيديه وابتسم مع أنه لم يدر أين يوجه بصره.

ثم مال برأسه إلى الخلف، وابتسم، وجلس بهدوء تحت الشجرة ينتظر مغرب الشمس.

الفصل الثاني عشر

الطب والسحر

تحركت بولينيزيا بهدوء؛ فتسللت خلسة من الشجرة التي وقفت عليها، وطارت إلى السجن، ثم دخلت الزنزانة من جديد عبر النافذة المرتفعة.

كل الحيوانات كانت تجلس بهدوء على الأرض والقلق باد عليها. كانت العودة إلى السجن مخيفة.

غير أن الدكتور دوليتل كان غافيًا، فتنحنحت بولينيزيا إلى أن استيقظ الطبيب الذي نهض بعدئذ من رقدته، وانتصب في جلسته، ثم فرك عينيه لينفض عنهما النوم.

قالت بولينيزيا: «اسمع، لدي أنا وتشي تشي خطة، الأمير سيأتي لرؤيتك الليلة، وقد أخبرته بأنك تتمتع بقوى سحرية، وهو يريدك أن تجعله بطل قصة خيالية.»

فصاح الدكتور دوليتل: «ماذا؟! وكيف بحق السماء سأفعل هذا؟ لا أعلم شيئًا عن السحر.»

قالت داب داب: «الدكتور دوليتل محق. لا يسع المرء ببساطة أن يحيل أميرًا إلى شخصية في قصة خيالية. هذا مستحيل.»

تابعت بولينيزيا كلامها قائلة: «حسنًا، لقد أقنعت الأمير بأن هذا واقع، وقمت بدوري، والآن حان دوركم؛ عندما يعرض عليكم مكافأة، يجب أن تطلبوا منه إطلاق سراحكم.»

تنهد الدكتور دوليتل قائلًا: «حسنًا، متى سيأتي الأمير؟»

أجابت بولينيزيا: «سيأتي للقائك بعد مغرب الشمس.»

قال الدكتور دوليتل: «إذن علي أن أبدأ العمل»، وأخرج مفكرته من جيبه، وقال: «لا أملك إلا بضع ساعات للتفكير في خطة.»

زار الأمير السجن في تلك الليلة، وأمر الحراس بانتظاره بجوار باب الزنزانة ودخلها. كان يشعر بالتوتر وهو يحدث الدكتور دوليتل العظيم، لكنه حاول أن يبدو رابط الجأش.

قال الأمير: «مساء الخير أيها الطبيب. أخبرتني ملكة الجنيات بأن علي أن أحدثك؛ قالت إن بإمكانك مساعدتي.»

فقال الدكتور دوليتل: «بالطبع، سأبذل كل ما بوسعي.» وبدا حنونًا ولطيفًا كعهده دائمًا. لم يستطع حتى أن يتظاهر بالجفاء.

قال الأمير: «أحب القراءة، وأقرأ طيلة الوقت، القراءة هي أكثر ما أفضل القيام به، لكن ليس بالقصص شخص مثلي. الشخصيات في القصص ترتدي ثيابًا فاخرة، وتملك شعرًا أشقر وعينين زرقاوين، وجميعهم يملكون جيادًا ويحاربون التنانين.»

قال الدكتور دوليتل: «فهمت، تريد أن تصبح كشخصيات القصص.»

فقال الأمير: «أجل، هذا هو بالضبط ما أريد.»

قال الدكتور دوليتل: «هل تعلم أن السعادة تصبح صعبة المنال جدًّا عندما تحاول أن تكون شخصًا مختلفًا.»

قال الأمير: «أعي ما أريد. أريد أن أصبح بطلًا كأبطال القصص الخيالية!»

فقال الدكتور دوليتل: «حسنًا، عليك أن تمهلني بعض الوقت، فعلي أن أخلط بعض الأدوية، إذ سنحتاج إلى شراب خاص.»

ثم التفت إلى حقيبة الأدوية الخاصة به واستخرج منها زجاجات مختلفة، وصب بعضها في وعاء مزج فيه محتوياتها. لم تكن تلك أدوية حقيقية، فقد أمضت بولينيزيا عصر اليوم في جمع الماء له، فلما فرغ من خلط الماء، التفت مجددًا إلى الأمير.

وقال له: «عليك أن تشرب هذا بسرعة. حاول أن تشربه كله على ثلاث جرعات.»

أخذ الأمير الوعاء وفعل بالضبط ما طلبه منه الدكتور دوليتل.

ثم سأله الدكتور دوليتل: «ما الذي تشعر به؟»

تلعثم الأمير قائلًا: «لا أدري. لا أدري حقيقة إن كنت أشعر بشيء أم لا.»

عندئذ أخذ جيب في النباح ووقف أمام الطبيب ونبح في وجهه.

فتراجع الأمير وقال: «ما الذي أصاب كلبك؟»

وأخذت البطة داب داب أيضًا في الصياح، وأخذ البومة تو تو في النعيب في وجه الأمير.

قال الدكتور دوليتل: «عجبًا. الشراب يحدث مفعوله سريعًا.»

قال الأمير: «حقًّا! ألديك مرآة؟»

قال الدكتور دوليتل: «آسف. لا، ليس لدينا مرآة.»

سأل الأمير: «إذن كيف سأعلم بما جرى لي؟ أريد أن أرى هذا بأم عيني.»

قال الطبيب: «انظر إلى جميع الحيوانات. يبدو عليها الانزعاج الشديد، لا بد أن شيئًا لا يصدقه عقل يحدث، والكل يعلم أن الحيوانات لا تكذب.»

نظر الأمير إلى الحيوانات التي بدا عليها بلا شك القلق، ثم نظر مجددًا إلى الطبيب وقال له: «هلا وصفتني إذن؟»

قال الدكتور دوليتل: «بالطبع، لقد صرت أطول بكثير. تبدو كمحاربي التنانين.»

سأل الأمير: «لكن كيف أبدو؟ هل أنا أشقر ذو عينين زرقاوين؟»

أجاب الدكتور دوليتل: «تبدو كأبطال القصص الخيالية.»

رد عليه الأمير قائلًا: «إذن لا بد أنني طويل وأشقر.»

فرد عليه الطبيب: «ثمة أنواع عديدة من الأبطال.»

فرح الأمير فرحًا بالغًا؛ كان موقنًا من أنه صار بالضبط كما تخيل، وقال للطبيب: «كيف عساي أن أشكرك؟»

قال الدكتور دوليتل: «بإمكانك أن تطلق سراحنا. الحبس هكذا يضر بالحيوانات.»

قال الأمير: «بالطبع. سأطلب من الحراس إطلاق سراحكم على الفور.»

تنحنحت البومة تو تو، ووكز جيب الطبيب في ساقه مذكرًا إياه بأمر ما، فقال الطبيب: «آه، سنحتاج أيضًا إلى سفينة، فعلينا أن نعود إلى وطننا في أسرع وقت ممكن.»

قال الأمير: «أستطيع أن أتدبر هذا أيضًا.» واتجه إلى الباب.

قال له الطبيب: «مهلًا، ثمة أمر آخر مهم. عليك أن تلزم القصر ثلاث ساعات على الأقل، فلا يمسك ضوء القمر أو الريح، وإلا أُبطل مفعول السحر.»

فقال الأمير: «آه، شكرًا. أنا سعيد بأنك حذرتني.»

ثم اتجه الأمير إلى باب الزنزانة وفتحه فتحة صغيرة، ووقف خلفه حتى لا يمسه ضوء القمر، فلم يبصره الحراس من خلف الباب.

وصاح: «أيها الحراس، أُعطي الإذن بإطلاق سراح هؤلاء السجناء. عليكم أن تصحبوهم إلى البحر. سيأخذون أحد قواربنا. رجاء احرصوا على مغادرتهم بسلام.»

قال أحد الحراس: «لكن ماذا عن الملك؟ لن يرضى عن مغادرتهم.»

قال الأمير: «سأهتم أنا بأمر والدي. الآن افعلوا ما آمركم به، وخذوهم إلى البحر.»

نفذ الحراس ما طلب منهم، وتبعهم الطبيب والحيوانات إلى البحر، وهناك أشار لهم الحراس إلى سفينة.

وقال أحدهم للدكتور دوليتل: «بإمكانك أن تأخذ هذه السفينة. علينا أن نعود إلى السجن الآن، ولا نملك الوقت لمساعدتكم للصعود على متنها.»

قال الدكتور دوليتل: «لا بأس. نشكركم على إحضارنا إلى هنا.»

وما إن غادر الحراس، حتى تنهدت الحيوانات.

وقال جاب جاب: «تلك كانت خطة جيدة. لقد صدّق الأمير بالفعل أن جيب يشعر بالقلق.»

فسألت تو تو: «كيف اهتديت إلى هذه الخدعة؟ كيف علمت أنه سيصدقك؟»

أجاب جيب: «لقد أراد أن يصدق الخدعة، فأدركت أن كل ما علينا هو أن نتظاهر بالأمر، فيصدقنا.»

قالت بولينيزيا: «ما أدهاك! أتمنى لو أن تلك الفكرة قد خطرت لي أنا.»

فقال الدكتور دوليتل: «البديهة — كما يعلم أي طبيب جيد — تكون أحيانًا أفضل الحلول.»

وقبل أن يصعد الدكتور دوليتل والحيوانات السفينة، اضطروا إلى وداع تشي تشي وبولينيزيا والتمساح الذين قرروا أن يمكثوا في أفريقيا؛ فرغم أنهم أحبوا الحياة مع الدكتور دوليتل، افتقدوا أسرهم التي كان فراقها للمرة الثانية سيكون شديد الصعوبة. تلك كانت لحظة عصيبة للجميع.

صعد الدكتور دوليتل، وجيب، وجاب جاب، وداب داب، والفأر الأبيض، والبوشميبوليو، وتو تو إلى متن السفينة، والتفتوا إلى الشاطئ من خلفهم ولوحوا لأصدقائهم مودعين.

سرى حفيف بين الأشجار، فالتفت الجميع على متن السفينة إلى الأدغال. كان القمر مكتملًا هذه الليلة، فأمكنهم الرؤية بوضوح. لقد حلقت فجأة الآلاف من عصافير الجنة في السماء.

فقال الدكتور دوليتل: «لم أع أننا مكثنا في أفريقيا وقتًا طويلًا إلى هذا الحد. سيكون الصيف قد شارف على القدوم عندما نعود إلى بودلبي. لا بد أن هذه هي عصافير الجنة العائدة إلى هناك.» ثم صاح مناديًا العصافير قائلًا: «كم هو لطيف منكم أن تنتظرونا. نحن الآن متجهون شمالًا، سيساعدنا أن تدلونا على الطريق.»

فأبحرت السفينة ووقف الدكتور دوليتل وحيواناته عند سورها، ولوحوا لأصدقائهم على الشاطئ؛ تشي تشي وبولينيزيا والتمساح الذين صاحوا مودعين لهم إلى أن بحت أصواتهم، ووعدهم الطبيب بأن يمضي إجازاته في أفريقيا مع أصدقائه. ومع ذلك كانت لحظة عصيبة بكوا فيها جميعًا بحرارة.

الفصل الثالث عشر

شرع حمراء وأجنحة زرقاء

اضطر الدكتور دوليتل وأصدقاؤه في طريق عودتهم إلى بودلبي إلى المرور بالساحل البربري، موطن قراصنة البربر.

هؤلاء القراصنة كانوا رجالًا مريعين يتربصون تحطم سفن البحارة على شاطئهم، فإن لم يحدث هذا، استقلوا زوارقهم وطاردوا هذه السفن، واستولوا عليها، وسرقوا كل ما بها، وأخرجوا ركابها منها على زوارق تجديف.

كان هؤلاء القراصنة دومًا راضين عن أنفسهم، يعودون إلى الشاطئ وهم ينشدون الأغاني ويحسبون أنفسهم شديدي الدهاء.

وفي يوم مشمس كان الطبيب وداب داب يتريضان فيه على سطح السفينة جيئة وذهابًا والرياح طيبة، منعشة، والكل سعداء. لاحظت داب داب قبل الجميع سفينة أخرى بعيدًا خلف سفينتهم، ذات شراع أحمر براق.

قالت: «لا تعجبني هيئة هذا الشراع، لا أظنه ودودًا. أخشى أن نواجه المزيد من المشكلات.»

كان جيب ينام إلى جانبها هي والطبيب على ظهر المركب، وقد أخذ يهر ويتحدث أثناء نومه. تمتم قائلًا: «أشم رائحة لحم مدخن يُطهى. آه، لحم مدخن مع مرق بني.»

قال الدكتور دوليتل: «عجبًا! ما الذي دها هذا الكلب؟ هل يشم أثناء نومه؟ يشم ويتحدث؟»

قالت داب داب: «يبدو هذا. كل الكلاب تستطيع أن تشم أثناء نومها.»

فقال الدكتور دوليتل: «لكن لا بد أنه يتوهم هذا، فليس هناك لحم مدخن يُطهى على متن هذه السفينة.»

فقالت داب داب: «لا بد أن تلك الرائحة قادمة من تلك السفينة الأخرى.»

فقال الدكتور دوليتل: «لكن هذه السفينة تبعد عنا عشرة أميال على الأقل. من المؤكد أنه لا يستطيع أن يشم من مسافة بعيدة كهذه!»

بدأ جيب يزمجر ثانية، وانثنى طرفا شفتيه، وأخذ يتحدث أكثر مع أنه ظل نائمًا، وتمتم قائلًا: «أشم رجالًا كريهين. أسوأ رجال شممتهم على الإطلاق. أشم خطرًا. ووف! علي أن أوقفهم. ووف.» وأخذ في النباح بصوت عال إلى أن أيقظ نفسه.

قالت داب داب: «انظروا! هذه السفينة اقتربت كثيرًا! لا بد أنها تسير بسرعة كبيرة. إنها متجهة نحونا. تُرى من على متنها؟»

فقال جيب: «كنت أحلم لتوي براكبيها، وأمكنني شم رائحتهم. إنهم رجال أشرار جدًّا. أعتقد أنهم قراصنة الساحل البربري.»

قال الدكتور دوليتل: «إذن علينا بالإسراع؛ علينا أن نرفع المزيد من الشرع لتدفعها الرياح، هذا سيساعد على إسراع سيرنا.»

فأسرع جيب وقصد الطابق السفلي للسفينة ليحضر المزيد من الشرع، وجذب كل ما يستطيع حمله منها، لكن حتى مع كل هذه الشرع، ظلت سفينة القراصنة أسرع، وظلت تقترب من سفينة الدكتور دوليتل.

تذمر جاب جاب قائلًا: «لقد وهبنا الأمير سفينة رديئة. لا شك أنها كانت الأبطأ في أسطوله. انظروا! لقد دنوا منا كثيرًا.»

قال جيب: «أرى ستة رجال. ماذا نحن فاعلون؟»

طلب الطبيب من داب داب أن تطير وتخبر عصافير الجنة بأن القراصنة يتعقبونهم، وأضاف: «قولي لهم إن سفينة القراصنة سريعة جدًّا.»

وعندما سمعت عصافير الجنة هذا، حطت كلها على متن السفينة، وطلبت من الدكتور دوليتل أن يفكك بعض الحبال الطويلة؛ إذ احتاجت إلى أقصى عدد ممكن من الحبال الرفيعة، ثم ربطت طرف هذه الحبال بمقدمة السفينة وأمسكت بالطرف الآخر، وطارت مجددًا إلى السماء جاذبة خلفها السفينة.

لعلك تعلم أن عصافير الجنة صغيرة الحجم وليست قوية، لكنها تصبح قوية تمامًا عندما يجتمع عدد كبير منها. اتصلت آلاف الحبال بسفينة الدكتور دوليتل، وجذب كل حبل اثنان من عصافير الجنة.

وفي غضون دقيقة أو اثنتين فقط، وجد الطبيب سفينته تتحرك بسرعة كبيرة، حتى إنه تشبث بقبعته بكلتا يديه، وشعر وكأنه يطير.

وأخذت كل الحيوانات على متن السفينة تضحك وترقص والتفتت خلفها إلى سفينة القراصنة فوجدتها تبدو أصغر شيئًا فشيئًا، وهم يبتعدون عنها كثيرًا.

الفصل الرابع عشر

تحذير الفأر

جذب سفينة عبر البحر عمل شاق، وعليه بدأت عصافير الجنة بعد ساعة أو اثنتين تشعر بالتعب، وكلت أجنحتها، ولهثت، وأشارت إلى الدكتور دوليتل بأنها بحاجة إلى الراحة، وأخبرته بأنها ستجذب السفينة إلى جزيرة قريبة حيث سيخبئونها على الشاطئ ويستريحون.

وعندما بلغ الطبيب والحيوانات الشاطئ بمأمن، أبلغ الطبيب الحيوانات أن بإمكانها أن تترجل من السفينة، إذ أدرك أنها تريد أن تمدد ساقيها، وأعلمها بأنه سيذهب ليبحث عن بعض الماء.

وأثناء مغادرة السفينة، لاحظ الدكتور دوليتل مئات الجرذان تصعد إلى ظهر السفينة من الطابق السفلي لها. كانت هذه الجرذان بدورها تاركة السفينة.

زحف من بين الجرذان جرذ أسود كبير متجهًا إلى الدكتور دوليتل، وسعل عدة مرات ثم توقف برهة لينظف شاربه، ثم تحدث.

قال بخجل: «معذرة أيها الطبيب، لكن عليك أن تعلم أن كل السفن على متنها جرذان.»

فقال الدكتور دوليتل: «أجل، سمعت هذا من قبل.»

– «لا شك أيضًا أنك قد سمعت أن الجرذان تغادر السفن الموشكة على الغرق.»

– «سمعت بهذا أيضًا.»

فقال الفأر: «أردت فقط أن أعلمك بأننا سنغادر هذه السفينة. لكن قبل هذا وددت أن أخبرك أن هذه السفينة ليست آمنة؛ فجانباها ليسا قويين، وألواحها فسدت. لن تصمد هذه السفينة يومًا واحدًا آخر.»

فسأل الطبيب: «لكن كيف أدركت هذا؟»

فأجاب الفأر: «نحن ندرك هذا دائمًا؛ نشعر بخدر في أطراف ذيولنا. إنه الشعور نفسه الذي يصيبك عندما تتخدر قدمك، جميعنا شعرنا بذلك هذا الصباح. حسبت في البداية أنني أصبت بالتهاب المفاصل من جديد، وأخبرت أخي بذلك فقال إنه يشعر الشعور نفسه، وأجمعنا على أن المشكلة تكمن في السفينة. عليك ألا تبحر عليها مجددًا، الآن علي أن أغادر؛ فعلينا أن نبحث عن مكان جيد نسكن فيه على الجزيرة. وداعًا!»

لوح الدكتور دوليتل بيده مودعًا الجرذ وهو يهرع إلى السفينة وصاح: «أشكرك على إخبارنا.»

غادر الطبيب وحيواناته السفينة، وحملوا معهم أوعية لملئها بالماء، وعجلوا في سيرهم على الشاطئ لئلا يزعجوا عصافير الجنة التي أخذت تستريح.

قال الدكتور دوليتل متعجبًا: «ترى ما اسم هذه الجزيرة؟ يوجد الكثير من الطيور هنا.»

قالت داب داب: «هذه هي طيور الكناري. ألا تسمع غناءها؟»

فصاح الطبيب: «آه. بلى أسمعه. ما أسخفني! ترى هل يستطيعون أن يدلونا على مكان نعثر فيه على الماء.»

فنادى على طيور الكناري التي سرها أن تساعده؛ كانت قد سمعت عنه من الطيور الأخرى، فأعطته جولة حول الجزيرة وصحبته هو وحيواناته إلى شلالاتها وحقولها الخضراء، وإلى نبع مياه عذب ملأ منه هو والحيوانات دلاءهم بالماء، وشعر الجميع بسعادة بالغة.

فضل البوشميبوليو الأعشاب الخضراء كثيرًا على التفاح المجفف الذي كان يأكله على السفينة. أما جاب جاب فتسنى له أن يحفر الأرض بحثًا عن الجذور اللذيذة، وأحب الجميع وادي قصب السكر البري الذي وجدوه بجانب النبع.

لكن فجأة طار اثنان من عصافير الجنة في لهفة إليهم.

قالا: «حضرة الطبيب! وصل القراصنة إلى الشاطئ. وجميعهم على متن سفينتكم الآن.»

سأل الدكتور دوليتل: «كل القراصنة على متن سفينتنا؟»

فأجاب عصفورا الجنة: «أجل، إنهم يسرقون كل شيء! لقد رأيناهم جميعًا وهم يهبطون إلى الطابق السفلي من السفينة.»

قالت داب داب: «إن كانوا جميعًا على متن سفينتنا، فهذا يعني أن سفينتهم خاوية!»

قال الدكتور دوليتل: «أنت محقة! هذه فكرة رائعة!»

قالت جاب جاب: «فكرة! لم أسمع أحدًا يقول فكرة. عم تتحدث؟»

أجابه الدكتور دوليتل: «آسف يا جاب جاب. ليس هناك وقت لشرح كل شيء. علينا أن نسرع!»

وجمع جميع حيواناته، وودعوا عصافير الكناري سريعًا، ثم هرعوا إلى الشاطئ.

وجدوا سفينة القراصنة ذات الشراع الأحمر راسية في الماء، وليس على متنها أحد كما أخبرهم عصفورا الجنة، فأخبر الدكتور دوليتل حيواناته بأن تسير بهدوء وتتسلل جميعًا إلى سفينة القراصنة.

الفصل الخامس عشر

تنين الساحل البربري

كان كل شيء سيسير على ما يرام لو لم يكن الخنزير جاب جاب قد أصيب بالبرد.

كان الطبيب وحيواناته قد جذبوا مرساة سفينة القراصنة في هدوء تام، وأخذت السفينة تتحرك لتخرج من الخليج بهدوء. لكن قبل أن يبتعدوا، عطس جاب جاب بصوت مرتفع جدًّا حتى إن القراصنة على السفينة الأخرى سارعوا بالصعود من الطابق السفلي.

نظروا إلى سفينتهم، فوجدوها تبحر، فجذبوا مرساة السفينة التي يركبونها، وبدءوا في مطاردة الدكتور دوليتل. كانوا بحارة مهرة؛ استطاعوا في غضون دقائق أن يتجهوا بها نحو فُم الخليج، واعترضوا طريق الدكتور دوليتل الذي لم تعد أمامه وسيلة للعودة إلى عرض البحر.

لوح زعيم القراصنة بقبضته في وجه الدكتور دوليتل قائلًا: «هاه! وقعت في قبضتي. حسبتَ أنك تستطيع أن تسرق سفينتي. أليس كذلك؟ لستَ بالمهارة الكافية في الإبحار لتفر مني؛ لهذا أُدعى تنين الساحل البربري! ليس هناك من يضاهيني قوة.»

ثم نظر إلى جميع الحيوانات التي مع الدكتور دوليتل وقال: «أريد هذه البطة! وهذا الخنزير! سنتناول عشاءً طيبًا الليلة.» فضحك سائر القراصنة.

أخذ جاب جاب المسكين يبكي، وبدأت داب داب تفكر في خطة للفرار، ومالت البومة تو تو على أذن الدكتور دوليتل لتهمس له بشيء.

قالت تو تو: «دعه يواصل الكلام، وحاول أن تكون لطيفًا لئلا يغضب. إن كانت الجرذان محقة، فلن تلبث سفينتنا أن تغرق. الجرذان لا تخطئ أبدًا، لذا حاول أن تهدأ وتدعه يواصل حديثه إلى أن تغرق السفينة.»

همس الدكتور دوليتل له قائلًا: «لكن الجرذان قالت إن السفينة ستغرق بحلول صباح الغد، فهل تتوقع مني أن أدعه يواصل حديثه إلى ذلك الحين؟ حسنًا، أعتقد أننا لا نملك خيارًا آخر. أليس كذلك؟ أتساءل عما علي أن أتحدث ...»

وعندما التفت الدكتور دوليتل خلفه لينظر إلى القراصنة، وجد السفينة التي يركبونها قد اقتربت أكثر، والقراصنة على متنها يضحكون. صاح أحدهم: «ترى من منا سيمسك بالخنزير!» وظلوا يضحكون بعض الوقت.

كان جاب جاب المسكين يشعر بالخوف، فتأهب البوشميبوليو للقتال؛ فمن شيمه الدفاع عن أصدقائه، مع أنه مخلوق خجول هادئ. أما جيب فوقف بين الخنزير والقراصنة فربما اضطر لحماية جاب جاب.

لكن بعدئذ توقف القراصنة عن الضحك، وبدت عليهم الجدية الشديدة. ثمة ما كان يزعجهم. تلفتوا حولهم في حيرة شاعرين بعدم الارتياح لخطب ما.

صاح تنين الساحل البربري: «فروا بسرعة! السفينة يتسرب إليها الماء يا رجال!»

نظر القراصنة حولهم بإمعان. كانت سفينتهم تغرق وتغوص في الماء أكثر فأكثر.

غاصت مقدمة السفينة أولًا إلى عمق شديد حتى إن مؤخرتها ارتفعت عاليًا، فاضطر القراصنة إلى التشبث بسورها، ثم اندفع ماء البحر بسرعة هادرة من جميع نوافذ وأبواب السفينة إلى أن غاصت آخر الأمر في قاع البحر تاركة القراصنة الستة يقفزون في الماء.

بعضهم أخذ يسبح نحو الشاطئ، والبعض الآخر حاول أن يصعد إلى السفينة مع الدكتور دوليتل. لكن جيب وقف يحرس سور السفينة بيقظة، وأخذ يعض وينبح كلما حاول أي منهم أن يصعد على متنها. وبدأ القراصنة يفزعون.

ثم لاحظ أحدهم شيئًا يسبح نحوهم في الماء، وصاح: «أسماك قرش! رجاء دعنا نصعد إلى متن السفينة، ستأكلنا أسماك القرش!»

فنظر الدكتور دوليتل إلى الماء بالقرب من القراصنة، ووجد أسماك القرش الكبيرة الرمادية تسبح في الماء، وكان لابد أن يقر بأن هذا موقف سيء للغاية حقًا.

وأخرجت إحدى أسماك القرش رأسها من الماء وقالت: «هل أنت الدكتور دوليتل؟»

فقال الدكتور دوليتل: «نعم. هل سمعت بي؟»

فأجابت سمكة القرش: «لا يوجد مخلوق على البر أو البحر لم يسمع بالدكتور دوليتل. هل يزعجك هؤلاء الرجال؟ نحن أيضًا نعلم كل شيء عن هؤلاء القراصنة. نستطيع أن نلتهمهم من أجلك إن شئت.»

قال الدكتور دوليتل: «لطيف منكم أن تعرضوا هذا، لكنني لا أرى هذا ضروريًّا، لكن قد نطلب منكم أن تسدونا معروفًا آخر. هلا أبقيتموهم جميعًا داخل الخليج إلى أن نغادر؟ إن عجزوا عن الوصول إلى السفينة أو الشاطئ فهذا سيساعدنا. ويمكنكم أن تطلقوا سراحهم عندما نغادر.»

قالت سمكة القرش: «سمعًا وطاعة يا حضرة الطبيب.» وطوقت أسماك القرش القراصنة في الماء.

كانت سفينة الدكتور دوليتل على وشك الإبحار، لولا أن الدكتور دوليتل رفع يده قائلًا: «مهلًا.» وعاد إلى سور السفينة ونادى على القراصنة.

ثم قال: «ثمة شيء آخر علي أن أقوله لكم: يجب أن تكفوا عن القرصنة من الآن!»

فقال زعيم القراصنة: «ماذا قلت؟! ولماذا علينا أن نكف عن القرصنة؟»

وضحك سائر القراصنة؛ إذ نووا أن يجدوا سفينة أخرى ما إن يغادر الدكتور دوليتل، ويعاودوا السرقة على الفور.

قال الدكتور دوليتل: «عليكم أن تكفوا عن القرصنة لأنني أمرت بهذا. بإمكانكم أن تروا أن أسماك القرش تنفذ أوامري، وجميع الحيوانات على البر والبحر أيضًا، فإن واصلتم السرقة وآذيتم الناس، فلن تكون أسماك القرش بهذا اللطف معكم، وستواجهون المشاكل مع الطيور، والجياد، والكلاب، والقرود.»

نظر زعيم القراصنة إلى أسماك القرش، وأدرك أن الدكتور دوليتل يقول الحقيقة. لن تتركهم الحيوانات وشأنهم قط.

فسأل: «لكن ماذا سنفعل؟ لا نعرف عملًا آخر.»

أجاب الدكتور دوليتل: «بإمكانكم أن تتعلموا الزراعة. هذا عمل طيب شريف؛ بإمكانكم أن تعينوا الناس بدلًا من السرقة منهم.»

كاد زعيم القراصنة يتذمر لولا أنه شعر بإحدى أسماك القرش تمسه برفق في قدمه.

فصاح: «حسنًا! حسنًا! سنكون مزارعين، نعد بهذا. هل لنا أن نسبح نحو الشاطئ الآن.»

قالت داب داب: «لكن ... كيف تأمن لقراصنة يا حضرة الطبيب؟»

فأجاب الدكتور دوليتل: «إنهم يدركون أن الحيوانات ستراقبهم.»

قال القراصنة جميعًا: «نعد بهذا! سنكون مزارعين ونحيا حياةً هادئة.»

ثم سبح القراصنة — أو المزارعون الجدد — نحو الشاطئ، وأبحر الدكتور دوليتل وحيواناته مرة أخرى.

الفصل السادس عشر

تو تو المستمعة

عاود الدكتور دوليتل وحيواناته الاتجاه مرة أخرى إلى بودلبي.

مال الطبيب على السور عند مؤخرة السفينة، وشاهدة جزيرة الكناري وهي تتوارى عن ناظره شيئًا فشيئًا، وتساءل عن حال القردة وعما يحدث في بودلبي أون ذا مارش.

ركضت داب داب آتية جانبه وهي تصيح: «هذه السفينة جميلة يا حضرة الطبيب! هل تفقدتها؟ حقًّا إنها رائعة. الفُرش في الطابق السفلي من الحرير، وثمة المئات من الوسائد الناعمة في أرجاء الغرفة، وبسط، وأطباق من الفضة، وكل أصناف الطعام الرائعة.»

قال الدكتور دوليتل: «يبدو هذا رائعًا.»

أضافت داب داب: «وهناك أيضًا غرفة مغلقة! بابها ضخم، ثقيل عليه قفل كبير. يقول جيب إن القراصنة على الأرجح قد خبئوا كل كنوزهم هنا. عليك أن تهبط إلى الطابق السفلي يا حضرة الطبيب. لعلك تستطيع فتح الباب.»

هبط الدكتور دوليتل إلى الطابق السفلي. وكانت داب داب محقة؛ فالسفينة كانت جميلة، بل لم ير الدكتور دوليتل قط مكانًا بهذا الجمال.

وجد جميع الحيوانات مجتمعة عند الباب المغلق، جميعهم يتحدثون في آن واحد محاولين أن يتوصلوا إلى ما بداخل الغرفة التي تقع خلفه، فأدار الدكتور دوليتل مقبض الباب، لكنه لم يفتح، فبحث هو وجميع الحيوانات في أرجاء الغرفة عن مفتاح الباب.

رفعوا البسط، وبحثوا تحت الكراسي والنضد، وفي الأدراج وخزانات الثياب، ووجدوا الكثير من الأشياء الرائعة، لكنهم لم يعثروا على مفتاح الغرفة، فعادوا جميعًا للوقوف بجانب الباب. ونظر جيب من خلال فتحة المفتاح، لكنه لم ير شيئًا.

ثم قالت تو تو: «مهلًا جميعًا. رجاء لا تتحركوا للحظة.» فوقفوا جميعًا ساكنين. ثم تابعت: «أظن أنني أسمع شخصًا بالغرفة.»

فأرهفوا جميعًا السمع مجددًا.

ثم قال الدكتور دوليتل: «أظن أنك مخطئة. لا أسمع شيئًا.»

قالت تو تو: «أنا واثقة من هذا! صه! ها هو الصوت مجددًا. ألا تسمعونه؟»

هز الدكتور دوليتل وجميع الحيوانات رءوسهم نفيًا.

قالت تو تو: «أنا واثقة من أنني أسمع شخصًا ما يضع يده في جيبه.»

فقالت داب داب: «هذا سخف، كيف تستطيعين سماع هذا؟ لا يصدر صوت عن هذا تقريبًا.»

فقالت تو تو: «بل أستطيع قطعًا أن أسمع هذا. أستطيع أن أسمع الصوت الذي تصدره القطة عندما تغمض عينيها. أؤكد لكم هذا؛ هناك شخص ما على الجانب الآخر من هذا الباب يضع يده في جيبه.»

سأل الدكتور دوليتل: «حسنًا، وما الذي يجري الآن؟»

قالت تو تو: «لست متأكدًا مما يجري. ارفعني إلى جانب فتحة المفتاح لأسمع على نحو أفضل.»

رفع الدكتور دوليتل تو تو وحملها على مقربة من مقبض الباب.

قالت تو تو بعد برهة: «إنه يحك وجهه بيده اليسرى. إنها يد صغيرة ووجه صغير. الآن هو يزيح شعره عن وجهه.»

سأل الدكتور دوليتل: «هل ثمة شيء آخر يجري؟»

أجابت تو تو: «هذا الشخص حزين. أسمع بكاءه. إنه يحاول جاهدًا ألا يصدر ضجيجًا، لكنني أسمع دموعه وهي تتساقط.»

قال الدكتور دوليتل: «هذا المسكين حزين. علينا أن ندخل ونرى ما خطبه. بسرعة! ليعثر لي أحدكم على فأس. سأحطم هذا الباب.»

الفصل السابع عشر

ثرثارو المحيط

عثرت الحيوانات سريعًا على فأس، فرفعه الدكتور دوليتل، وهوى به بقوة مرتين، صانعًا فتحة بالباب تكفي بالكاد للزحف عبرها.

كانت الغرفة في البداية مظلمة إلى حد يحول دون رؤية أي شيء، فأشعل الدكتور دوليتل عود ثقاب.

كانت غرفة صغيرة جدًّا، ليس بها أي نوافذ، وسقفها منخفض. ليس بها إلا مقعد صغير بلا ظهر، وقد جلس في منتصفها صبي صغير في الثامنة من العمر تقريبًا، يبكي بحرقة.

شعر الصبي بالخوف من هذا القادم وكل حيواناته العجيبة، لكنه كف عن البكاء ما إن رأى وجه الدكتور دوليتل، ونهض من مجلسه وقال: «أنت لست واحدًا من هؤلاء القراصنة، أليس كذلك؟»

رجع الدكتور دوليتل برأسه إلى الوراء وضحك، وضحك الصبي بدوره.

قال الصبي: «ضحكتك ودودة للغاية. ليست كضحكة القراصنة على الإطلاق، لكنني أشعر بالقلق. هل رأيت عمي؟»

تساءل الدكتور دوليتل: «عمك؟ هل كان معك على متن هذه السفينة؟»

أجاب الصبي وعيناه تدمعان: «نعم.» ثم أردف: «كنا نصطاد السمك معًا عندما أسرنا القراصنة. أرادوا أن ينضم عمي إلى طاقمهم، وأبعدوه عني عندما رفض هذا.»

سأل الدكتور دوليتل: «وهل لديك أدنى فكرة عما حدث له؟»

صاح الصبي: «لا، لقد احتجزوني في هذه الغرفة. لم أغادرها منذ أكثر من أسبوع! سألتهم عن عمي، لكنهم رفضوا إخباري بأي شيء عنه. أخشى أن يكون قد غرق!»

قال الدكتور دوليتل: «حاول ألا تقلق.» ومسح على رأس الصبي واستطرد: «سنفعل كل ما بوسعنا للعثور عليه.»

فقال الصبي: «آه، شكرًا!»

ثم سأل الطبيبُ الصبي: «هل تستطيع أن تصف لي عمك؟» وأخرج مفكرته وقلمه الرصاص.

رد الصبي: «إنه فارع الطول، أصهب، سفينته اسمها «سالي المقدامة». لا أملك أدنى فكرة عما حل بها.»

وعندما فرغ الصبي من قصته، نام قليلًا في ضوء الشمس، فاتجه الدكتور دوليتل إلى سور سفينته وصاح مناديًا دلافين البحر إلى أن ظهرت مجموعة منها بجوار قاربه.

حدثها الطبيب قائلًا: «أبحث عن شخص ما. هل رأيتم صيادًا طويلًا أصهب الشعر؟ نعتقد أنه مفقود منذ أسبوع أو اثنين.»

قال دولفين: «هل تقصد مالك سفينة «سالي المقدامة»؟ رأينا السفينة. إنها بقاع البحر، لكن الصياد ليس بها. لا أستطيع أن أدلك على مكانه، لكنه لم يغرق.»

سأل الدكتور دوليتل: «كيف تأكد لك هذا؟»

أجاب الدولفين: «آه، كان هذا سيتنامى إلى علمنا. نحن ندعى ثرثارو المحيط لأننا نعلم بكل ما يجري في الماء. إن كان هذا الصياد قد غرق، كنا سنعرف ذلك.»

قال الدكتور دوليتل: «حسنًا. هذا على الأقل نبأ سار. أعتقد أننا سنضطر إلى مواصلة البحث عنه. إن بلغكم أي شيء عنه، رجاء أبلغونا به، فابن أخيه يشعر بالقلق الشديد بشأنه.»

ووعدت الدلافين بهذا.

طلب الدكتور دوليتل من الحيوانات تشكيل فرق بحث؛ فوافقت تو تو وداب داب على أن تطيرا فوق ماء المحيط للبحث عن أثر للصياد، وقالت عصافير الجنة إنها بدورها ستبحث عنه.

قال الدكتور دوليتل لفرق البحث: «تذكروا أن تسألوا كل من تلقونه إن كان قد رأى رجلًا طويلًا أصهب الشعر. لا بد أنه في مكان ما.»

الحيوانات الأخرى حرصت على تسلية الصبي على ظهر السفينة، فلعبت معه، وركضت على ظهر السفينة. وكما يمكن أن تتوقع، لم يكن الصبي قد رأى من قبل بوشميبوليو، فتساءل إن كان يتوهم.

لم يمانع البوشميبوليو أن يحدق به الصبي، إذ أدرك أنه لا يقصد سوءًا، بل إنه سمح له بركوبه والتجول به على ظهر السفينة.

أما الدكتور دوليتل، فكان صامتًا قلقًا بشأن عم الصبي. تأمل المحيط، وتمنى أن تبلغه سريعًا أنباء عن الصياد.

الفصل الثامن عشر

جيب المنقذ

أدركت داب داب وتو تو أنهما لا تستطيعان أن تبحثا في كل مكان؛ كان هذا متعذرًا حتى مع مساعدة عصافير الجنة. لذا ذهبت تو تو للتحدث مع النسور، فعثرت على نسر أسود، ونسر أصلع، ونسر ذهبي. واتفقوا جميعًا على أن يحلقوا فوق الأدغال، والغابات، والجبال للبحث عن عم الصبي.

عادت النسور في اليوم التالي إلى سفينة الدكتور دوليتل، وقال النسر الأصلع للطبيب: «نحن آسفون. لم نر الرجل الذي وصفته، لكننا سنواصل البحث عنه، رغم أنني لا أحسبه على البر على الإطلاق.»

شكر الدكتور دوليتل النسور على مساعدتها.

وقال وهو يهز رأسه بأسف: «أعتقد أن الحيلة أعيتني. لم أعد أدري على الإطلاق أين أبحث عن الرجل.»

قال جيب: «لم لا تدعني أحاول البحث عنه.»

فسألت داب داب: «أنت؟ ما الذي يسعك فعله؟»

قال جيب: «قد أجده باستخدام حاسة الشم لدي.»

قالت داب داب: «لا تكن سخيفًا. نحن في منتصف المحيط. لن يسعك تبين أي رائحة هنا!»

قال جيب: «ستدهشك قدراتي»، ورفع رأسه — إذ لم يكن ليسمح لبطة بإهانته — ثم أردف: «حضرة الطبيب، هلا سألت الصبي إن كان معه شيء يخص عمه؟»

نفذ الدكتور دوليتل ما طلبه منه جيب، فأعطاه الصبي خاتمًا ذهبيًا معلقًا بخيط. وأردف: «أعطاه عمي لي ما إن رأينا سفينة القراصنة.»

قال جيب للدكتور دوليتل: «لا، هذا الخاتم لن يجدي نفعًا. هلا سألته إن كان معه شيء من قماش؟»

نفذ الدكتور دوليتل ما طلبه منه جيب للمرة الثانية، فأعطاه الصبي عصابة رأس لونها أحمر فاتح.

فقال جيب: «رائع، ليتك الآن تسمح لي فقط بتشممها ...» وألصق أنفه بعصابة الرأس واستنشق رائحتها عدة مرات.

ثم قال: «لا تقلق أيها الطبيب. رجاءً أخبر الصبي بأنني سأعثر على عمه، وسأجد أثره حتمًا.»

لكن هذا استغرق عدة أيام. تمثلت المشكلة في الريح؛ إذ لم يستطع جيب أن يشم إلا الروائح التي تهب تجاههم، ولم تهب الريح في الأيام الأولى إلا من الشرق، من ثم لم يستطع جيب أن يشم إلا الروائح القادمة من هذا الاتجاه. كان شخص ما يعد يخنة من لحم شاة، وآخر كان يحرق بعض أوراق الأشجار، لكن لم يكن هناك أثر لرائحة العم.

لكن عندما استيقظ الجميع صباح يوم ما كانت الريح تهب من الغرب، فاتجه جيب سريعًا إلى السور بجانب السفينة، واستنشق الهواء عدة مرات، ثم نادى على الدكتور دوليتل.

قال: «وجدته! أعلم إلى أين علينا أن نتجه.»

رد الدكتور دوليتل: «حقًّا؟ هذا مثير للغاية!»

قال جيب: «سأقف عند مقدمة السفينة، اتبعوا أنفي وأنا أتنسم الهواء، سنقصد العم مباشرة.»

نفذوا ما طلبه منهم جيب، لكنهم لم يعثروا على العم، بل وجدوا حجرًا كبيرًا أبحروا حوله مرارًا وتكرارًا، لكن لم يكن هناك أحد.

وقال جيب بإصرار: «لكنني أشم الرجل. إنه حتمًا على هذه الصخرة!»

طارت إحدى عصافير الجنة فوق الصخرة جيئة وذهابًا عدة مرات، ثم أسرعت عائدة إلى السفينة وأخبرت الدكتور دوليتل بأن بالصخرة فتحة كبيرة في منتصفها.

قال الدكتور دوليتل: «حسنًا، سيتعين علينا أن نرسو على الشاطئ.»

رست سفينتهم إلى جانب الصخرة، وتسلقها الدكتور دوليتل، وسار إلى الفتحة الموجودة بها. كان هناك طريق طويل يؤدي إلى داخلها، فأشعل الطبيب عود ثقاب وسار في الظلام.

احتاجت عيناه إلى بعض الوقت لتعتادا الظلمة، لكنه آخر الأمر لاحظ شيئًا أمامه مباشرة. استغرق وهلة ليدرك ماهيته؛ وكان هذا عم الصبي! كان يغط في نوم عميق بالكهف.

الفصل التاسع عشر

الوطن

فرح الصبي وعمه بلقاء أحدهما الآخر! وحمل العم ابن أخيه واحتضنه بقوة.

سأل الصبي عمه: «ما الذي حدث لك؟»

فأجاب العم: «عندما رفضت الانضمام إلى القراصنة تركوني وحدي على هذه الصخرة. لم يكن لدي إلا القليل من الطعام والماء، ومن حسن الحظ أنكم عثرتم علي في هذه اللحظة.»

أيده الدكتور دوليتل قائلًا: «أجل، جميعنا محظوظون. أظن أن علينا أن نعيدكما إلى بلدتكما، أنا واثق من أن الجميع هناك سيكونون قلقين عليكما.»

تبع الدكتور دوليتل إرشادات العم للعودة إلى البلدة التي بلغوها في غضون بضع ساعات، وهناك ركض أهل البلدة لاستقبالهم وهم يرسون عند الميناء. وما إن رأوا الصبي الصغير وعمه، حتى أخذوا يهللون.

تجمعوا حول الصبي، وأصغوا إليه وهو يروي ما حدث. وقال الصبي: «لولا جيب، لما عثرنا قط على عمي!»

وهرعت امرأة تشق طريقها بين الحشد وجذبت الصبي، وحملته محتضنة إياه بين ذراعيها وهي تصيح: «صغيري!»

فقال الصبي: «أمي»، واحتضن المرأة بقوة وأجهش بالبكاء.

سار عمدة البلدة إلى الدكتور دوليتل وسأله: «كيف أشكرك؟ كنا حتمًا سنفقدهما لولا مساعدتك.»

قال الدكتور دوليتل: «نحن نقدم المساعدة دائمًا متى استطعنا.»

فقال عمدة البلدة: «رجاء امكث معنا الليلة. سنقيم مأدبة وحفلًا راقصًا للاحتفال، وسيشرفنا هذا.»

وسار الجميع إلى البلدة حيث أعدت الموائد وسط ميدانها، ووضع أهل البلدة الزينة، وأضاءوا كل مصابيح الشوارع، وأحضروا جميعًا الطعام لاقتسامه مع الآخرين، فتوفر الكثير من الطعام، وجلسوا جميعًا وحظوا بوجبة رائعة.

ألقى عمدة البلدة بعد العشاء خطابًا شكر فيه الدكتور دوليتل وحيواناته مجددًا وقال: «الآن نود أن نهدي هذه الهدية إلى جيب. هدية مميزة إلى كلب مميز.»

وأخرج صندوقًا صغيرًا، ففتحه الدكتور دوليتل لجيب وقال: «رباه! كم هي هدية جميلة.» وحملها لجيب.

كانت الهدية قلادة من الذهب الخالص كُتب عليها: «إهداء إلى جيب: أبرع كلب في العالم.»

هز جيب ذيله قائلًا: «شكرًا.» وطلب من الدكتور دوليتل أن يترجم ما قال بلغة البشر أيضًا.

استمر الحفل وقتًا طويلًا من الليل، وغنى الجميع، ورقصوا، وضحكوا. كان هذا أفضل وقت قضاه الدكتور دوليتل منذ زمن طويل، ولم يشعر جيب بهذا الفخر من قبل.

تأهب الدكتور دوليتل صباح اليوم التالي للإبحار مجددًا.

فسأله عمدة البلدة: «ألا تود أن تمكث وقتًا أطول؟»

وقال الصبي: «أجل، لم لا تمكث حتى الشتاء؟»

رد الدكتور دوليتل: «آسف. علي أن أغادر. لقد طال غيابي عن وطني.»

وعاد هو وحيواناته سريعًا إلى سفينتهم، وأبحروا مجددًا، وتجمع كل أهل البلدة على الشاطئ ولوحوا لهم مودعين.

بلغ الطبيب والحيوانات إنجلترا في يوم مشرق مشمس، لكنهم لم يعودوا إلى بودلبي على الفور. أرسل الدكتور دوليتل أولًا السفينة إلى صديقه الصياد آملًا أن يسعد بسفينة القراصنة الجديدة.

كان البوشميبوليو بحلول هذا الوقت قد أحب الطبيب وجميع حيواناته، وعدّهم أسرته الجديدة. ولما كان يعي أن الدكتور دوليتل بحاجة إلى مال ليدير شئون منزله، أخبر الطبيب أنه يود مساعدته، وعرض عليه أن يعرضه على الناس مقابل نقود.

سأله الطبيب: «هل أنت متأكد من هذا؟ أعلم أنك خجول، ولا أريدك أن تشعر بعدم الارتياح.»

قال البوشميبوليو: «ستسرني مساعدتك، كما أنني لا أشعر بالخجل إلى هذا الحد بينكم. لا أشعر بالوحدة التي شعرت بها في الأدغال.»

جاب الطبيب وحيواناته البلاد، وتوقفوا في كل بلدة على طول الطريق ووضعوا لافتة كتب عليها:

«شاهدوا البوشميبوليو! خمسون سنتًا فقط!»

وأتى الناس من أميال بعيدة لمشاهدة هذا الكائن الغريب.

حقق الطبيب وحيواناته شهرة كبيرة، حتى إنهم اشتروا خيمة تتسع لمزيد من الناس كي يشاهدوا البوشميبوليو في نفس الوقت. لكن الدكتور دوليتل كان يسمح بالطبع للأطفال بالدخول ومشاهدة البوشميبوليو مجانًا عندما يعتقد أنه لا يوجد من يراه. وأغضب هذا داب داب، لكنها لم تحاول أن تمنعه. فكيف لها أن تمنعه إن كان هذا يشعره بالسعادة الشديدة؟

حظي عرضهم في نهاية الأمر بشعبية هائلة حتى إن رجال السيرك أتوا البلدة وأرادوا شراء البوشميبوليو، وعرضوا على الدكتور دوليتل مبلغًا طائلًا من المال مقابل شرائه. كان هذا مبلغًا كافيًا لأن يغني الطبيب عن القلق بشأن المال إلى الأبد، لكن الطبيب رفض.

قال: «آسف يا سادة؛ إنه صديق لي، ولا يسعني أن أبيع صديقًا. كما أنني وعدت بأن أعيده إلى موطنه إن شعر بالحنين إليه. كيف سأفعل هذا إن كان بالسيرك؟»

حاول رجال السيرك إقناع الطبيب بالعدول عن رأيه، وعرضوا عليه المزيد من المال، وأخبروه بأنهم سيسمحون له بزيارتهم متى أراد، لكن الطبيب ظل رافضًا بيع البوشميبوليو.

وعندما تبدل لون أوراق الأشجار، وتسللت البرودة إلى الجو، حان أوان العودة إلى بودلبي، فجمع الطبيب فرقته الصغير وعاد بها إلى بودلبي أون ذا مارش.

كان كل شيء على ما يرام في منزل الطبيب؛ إذ حافظ الحصان العجوز على سير أموره بلا مشاكل، فكان نظيفًا وظل فناؤه مرتبًا.

واضطلع الحصان نفسه بكل شيء بالطبع، وساعدته فئران الحقل والقنفذ متى سنح لهم هذا. وعرج أيضًا الصياد والجزار على منزل الطبيب وحرصا على أن يكون به ما يكفي من القش والماء النقي.

قال الحصان: «حتى أختك أتت لزيارتنا ونفضت الغبار عن الأثاث وكنست الأرض، وقدمت لنا الكثير من المساعدة.»

قال الدكتور دوليتل: «هذا لطف منها بالتأكيد.»

ولم يمض وقت طويل قبل أن يعود الجميع إلى وتيرة حياتهم السابقة؛ فعثرت تو تو على المكان المفضل لها من الحظيرة، وانزوى جاب جاب في ركن من فناء المنزل، وصنعت داب داب لنفسها عشًّا في شرفة المنزل، وذرع جيب فناء المنزل جيئة وذهابًا إلى أن وجد الشجرة المناسبة ليتمدد تحتها. كان يشعر بالفخر الشديد بطوقه الذهبي، حتى إنه كان يريه لكل من يمر به.

أما الدكتور دوليتل، فجاب أرجاء المنزل وتصفح كتبه وتفقد خزانات الأطباق لديه. الذهاب إلى أفريقيا كان مغامرة رائعة، لكنه مع ذلك كان شديد السعادة بالعودة إلى منزله.

وفي أفريقيا، كانت القردة على نفس الحال؛ فما إن قُضي على المرض الرهيب الذي أصابها، عادت إلى حياتها الطبيعية، وتأرجحت على الأشجار، ولعبت في الحقول، وأكلت الموز وأوراق الأشجار الخضراء.

وحكت ليلًا القصص بعضها لبعض. القصص نفسها التي قصها تشي تشي على الدكتور دوليتل وحيواناته عن السحالي العملاقة وحيوانات الماموث ذات الشعر الصوفي، وقصة الدكتور دوليتل العظيم الذي أتى لزيارة القردة وهي مريضة. وكان الجميع يفضلون قصة الدكتور دوليتل.

سأل قرد صغير: «ترى ما الذي يفعله الدكتور دوليتل الآن؟»

وسأل آخر: «هل تظنون أنه سيأتي لزيارتنا مجددًا قريبًا.»

قالت بولينيزيا التي كانت تمكث مع القردة: «بالطبع سيأتي، أنا واثقة من هذا. وما الذي سيمنعه من القدوم للزيارة؟ حقًّا، أحيانًا تكون القردة في غاية السخف.»

وصاح التمساح من مكانه بالقرب من النهر: «أنا واثق من أنه سيأتي! اخلدوا إلى النوم الآن!»

شعرت الحيوانات في أفريقيا بالقرب من الطبيب، مع أنها كانت على بعد آلاف الأميال منه. كانت تدرك أنه سيأتيها دائمًا إن احتاجت إليه، فخلدت جميعها إلى النوم ونامت تحلم بصديقها العزيز؛ الدكتور دوليتل في بودلبي أون ذا مارش.

هنـــداوي